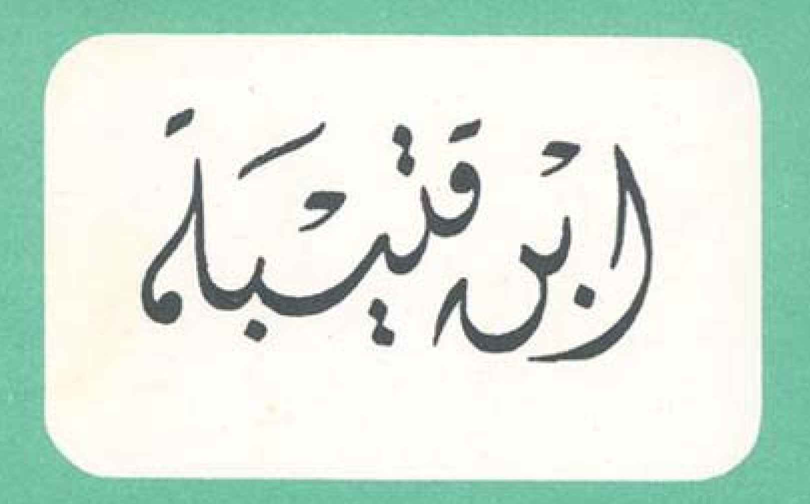
نوابغ الفكر العربي

١٨



بقلم الدكتور محمد زغلول سلام

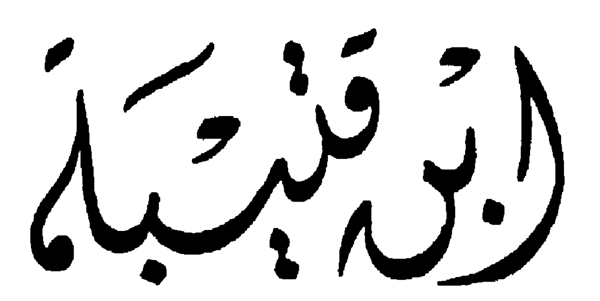


دار المعارف

ابن قتيبة

نوابغ الفكر العربي

١٨



بقلم الدكتور محمد زغلول سلام

عالم فقيه وأديب نقاد ذواقة خصب الفكر عظيم الإنتاج . روى ابن تيمية عن أهل المغرب أنهم كانوا يقولون :

« كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه . . . »

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الفصل الأول

عصر ابن قتيبة

١ ـ الحالة السياسية

عاش أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى عصر بنى العباسى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ولد على عهد المأمون بن الرشيد ، أيام كانت الدولة العباسية وهى فى أوج مجدها وازدهارها : قد امتدت سيطرتها إلى أطراف الصين والهند شرقاً وإلى شواطئ المحيط الأطلسى غرباً ـ باستثناء دولة الأغالبة والأدارسة بإفريقيا .

وكان المأمون يستعين بجماعة من الرجال الأقوياء ، اعتمدت عليهم دولته ، واستقرّ بهم ملكه أمثال طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، والفضل بن سهل . وقد بلغ من قوة آخرهم ، واتساع نفوذه أن أشيع أنه تغلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده ، وأنه كان يبرم الأمور على هواه . ولم تكن هذه الشائعة فيما يبدو إلا جزءاً من ذلك الصراع الذى استفحل بعد موت الرشيد بين العرب والفرس على السلطان ، واتخذ صورة عنيفة فى حركة الفتنة بين الأمين والمأمون ، وفى سلسلة الاضطرابات والحروب الأهلية بين الهاشميين والعلويين أبلى فيها قواد المأمون بلاء حسناً ؛ كما ظهرت فى كثير من الفتن التى كانت تثور هنا وهناك فى أنحاء مختلفة فى مثل فتنة أبى السرايا فى الكوفة ، وقد انتهت باستيلاء هرثمة بن أعين عليها ، فقتل أبو السرايا زعيم الفتنة. وصلب ببغداد سنة ٢٥٠ هـ ؛ وكفتنة نصر بن شبث الثائر العربى الذى غلب على شمال العراق والشام . وكانت دعوته قائمة على أساس الانتصار للعرب من تغلب الفرس على الخلافة ، وكان يقول : « إنما حاربتهم ـ أى بنى العباس ـ

محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم »[١] .

والذى يظهر من بين تلك الفتن جميعاً ، ويميز ذلك العصر إنما هو فتن الطالبيين وثوراتهم ، فكان لهم فى مكة إمام هو محمد بن جعفر الصادق ، تجمعوا حوله وانتصروا له . وقام فى اليمن بعض ولد عقيل بن أبى طالب ، وقد تعرضت دولة المأمون لضرباتهم فى كل مكان ، وحفت بها الأخطار ، فلم تترك ثورتهم مكاناً إلا استعرت نارها فيه ، وامتد لهبها إلى بغداد عاصمة الخلافة امتداده إلى البصرة والكوفة وبعض العواصم الأخرى .

واجه المأمون كل تلك الأحداث مجتمعة أو متتابعة ، فما لان لها ولا تخاذل ، بل واجهها جميعاً ، وعالجها بالقوة حيناً وبالحكمة والسياسة حيناً آخر . وكان من حسن سياسته أن اختار لولاية عهده على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق — ثامن أئمة الشيعة الاثنى عشرية — ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، ولبس الثياب الخضر زيّ العلويين ، وذلك ليهدئ ثوراتهم المندلعة ، وليكسبهم إلى جانبه . فأغضب هذا جماعة أهل السنة ، واعتبره المسعودى المؤرخ من زلات المأمون ، وثار لذلك جماعة من أهل بغداد وبايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدى عم المأمون .

وعندما تخلص المأمون من العلويين ، وخفت وطأة ثوراتهم ، أقلع عمّا كان قد ذهب إليه ، فعاد إلى السواد لباس آبائه وأجداده .

وقاوم المأمون طغيان العنصر الفارسى بانتقاله من مَرْو إلى بغداد ليرضى العرب ثم بتدبيره — فيما يقال — قتل الفضل بن سهل ليتخلص من نفوذه ، وليحدّ من غُلَواء الفرس بعد أن استأثروا بشؤون الخلافة وأمور الدولة وكادوا أن يحجزوه عن شعبه وسلطانه .

واستتب الأمر للمأمون بعد وقت عصيب ، فأمسك بصولجان الخلافة فى قوة واقتدار . واتجه إلى التنظيم الداخلى والبناء فى شتى أنحاء ملكه ، وأصبحت بغداد فى عصره موئل العلماء والأدباء ، ومجلى مظاهر الحضارة الزاهرة . وكان لشخصية المأمون وأخلاقه أثر كبير فيما كسبته البلاد من إصلاح وازدهار . فقد

---

(١) « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢١٧ .

كان رجلاً عاقلاً ، كريم الخلق ، محبًّا للعلوم والآداب ، مشجّعاً للعلماء والأدباء ممّا سبّب تلك النهضة الكبرى فى ضروب المعرفة ، وفى علو شأن الفكر وقيام كثير من الحركات الفكرية من مثل حركة المعتزلة التى آمن بها المأمون وشجّعها وقرّب علماءها ، ومكّن لهم فى بلاطه ودولته. وعاونهم على معارضيهم من أهل السنّة معاونة أدبية وماديّة ، فشجع طرقهم فى المناظرة والجدل ، ودعا إلى احترام آرائهم ؛ كذلك قويت حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية فأكسبتها ثروة كبيرة ، ووسعت آفاق الفكر الإسلامى ، وكانت لها آثارها البعيدة المدى فى التراث الفكرى العربى .

وكان من وزراء المأمون جماعة من الفضلاء البارعين فى العلم والأدب ، والكتابة أمثال أحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن يوسف الكاتب البليغ ، وعمرو بن مسعدة ، ويحيى بن أكثم التيمى وقد كان من المقربين إليه المستشارين فى مهام الأمور ، وكان فى أصفيائه أيضاً الفقيه الحكيم العالم ثمامة بن أشرس المتكلم ذو الحظوة والرأى لديه .

وتوفى المأمون ، وأعقبه أخوه المعتصم ، تولى سنة ٢١٨ ﻫ ، وكان قائداً شجاعاً جريئاً ، تمت فى عهده كثير من الانتصارات العظيمة ، ومنها انتصاره على إمبراطور الروم وفتح عمورية الذى خلده أبو تمام فى قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ فى حدّه الحدّ بين الجدِّ واللعبِ

وانتصاره على بابك الحرمى ، وأسره وصلبه .

وسار المعتصم على النهج الذى سار فيه سلفه المأمون فى تشجيع العلم والأدب وتقريب المشتغلين بهما ، كما استمر فى تعضيده للمعتزلة ، واتخذت سياسته فى مؤازرته لهم طابع القوة ، ممّا دعا كثيراً من أهل السنّة ومن ورائهم العامة إلى التذمر ؛ ففى عهده حدثت محنة خلق القرآن المشهورة والتى راح ضحيتها كثيرون ، وتعرض للاضطهاد والتعذيب آخرون من علماء أهل السنّة وكان بينهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف .

وكان المعتصم رجل حرب ، ولم يكن له دهاء المأمون ولا حكمته ، فوجّه اهتمامه إلى الجيش ، فعزّزه ، واجتلب له الجند الأتراك ، لما عرف عنهم من القوة ، وشدة المراس فى الحرب . ولكن لم تلبث تلك السياسة حتى أدّت إلى غلبة الأتراك على الجيش ثم على مراتب الدولة ، فأصبحت القيادة فى أيديهم ، وكان التنافس بينهم شديداً ، فاضطربت الأمور واختلّت ، ومهّد ذلك للانحلال والضعف الذى طرأ على الخلافة من بعد ، والذى بدأ بقتل المتوكل ثم بسلسلة من الاضطهاد والعزل والقتل تعرض لها الخلفاء بعده .

وكان من نتائج ضعف السلطة المركزية فى بغداد — والممثلة فى الخلافة — أن قلّت هيبتها وتقلص نفوذها على الأطراف مما أطمع كثيراً من الأمراء والحكام فى الاستقلال والخروج على الخلافة . ومن هؤلاء آل طاهر والسامانيون والصفاريون فى الشرق والطولونيون فى مصر .

ولقد وزر للمعتصم جماعة من المشهورين مثل محمد بن عبد الملك الزيات الأديب الشاعر ، وأحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وكان يرى رأى المعتزلة ويتعصّب للعرب . ولم تطل خلافة المعتصم أكثر من تسع سنوات ، فتوفى سنة ٢٢٧ هـ وتولى بعده الواثق .

وفى عصر الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٢ هـ) اشتد نفوذ القواد الأتراك . وعلى رأسهم أشناس ، وثار على الدولة أعراب بنى سليم قرب المدينة ، وبنو هلال وبنو نمير باليمامة .

وكثرت مصادرة الأموال فى عهده . حتى إنه صادر أموال جماعة من الكتّاب .

وجاء بعده المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) ، وبدأعهده بتغيير السياسة التى كان عليها أسلافه المأمون والمعتصم والواثق ، وهى الأخذ بيد المعتزلة ، فأمر الناس بترك النظر والمباحثة والجدال ، والتسليم بالحديث والسنّة . ونكب محمد ابن عبد الملك الزيات كما أبعد القاضى ابن أبى دؤاد . واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وجالس الفتح بن خاقان ، وقد شعر المتوكل فى حكمه بثقل الأتراك ،

فأراد أن ينتقم منهم ، وأن يرجع إلى العرب يحتمى بهم ويثير عصبيتهم . فعزم على الإقامة بدمشق ، فتوجس القواد خيفة ، وشغبوا عليه ودسّوا له من يقتله فى المجلس ويقتل معه الفتح بن خاقان ، فكان أول خليفة من بنى العباس يقتل على تلك الصورة بأيدى الخدم .

ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلفاء يجنون ثمار غرس المعتصم . فتسلط القواد على الخلفاء وأمسكوا بالزّمام وولّوا من شاءوا وعزلوا أو قتلوا من لم يخضع لسلطانهم حتى تعاقب على الخلافة فى خمسة عشر عاماً ستة خلفاء هم المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى وابن المعتز والمعتمد ، وصارت الخلافة لعبة فى أيدى الأتراك حتى قال أحد الشعراء يرثى لتلك الحال :

خليفةٌ فى قفص بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببّغا

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) بدأ الخلفاء يستعيدون السلطة التى تفلتت من أيديهم وذلك بفضل الموفق أخى المعتمد الخليفة لما أبداه من حزم وشدة بأس ، فقد تولى بنفسه إمارة الجيوش ، وحارب الخارجين ، فانتصر على صاحب الزّنج وأخمد الثورة التى أشعلها فى الجنوب وهدد بها الدولة زمناً طويلا .

ولكن الأمور لم تستقر للدولة العباسية ، بل أخذت الأطماع تهددها من الشرق والغرب . فالطاهريون ، والسامانيون ، والصفاريون يتنافسون للاستقلال بالشرق ، والروم يغيرون على الثغور ، والطولونيون ينتهزون الفرص فيستقلون ويكونون دولة بمصر ويستولون على بعض أجزاء أخرى يضمونها إليهم .

وهكذا عاش ابن قتيبة فى عصر أسماه المؤرخون العصر العباسى الثانى ، لأنه بدأ بانحلال الدولة العباسية ، وانتقال السلطة من أيدى الخلفاء إلى أيدى الأتراك ، ولأنه بدأ بانحسار سلطانهم عن بلاد كثيرة .

٢ ـ الحياة الاجتماعية

كان المجتمع البغدادى فى عصر بنى العباسى يجمع خليطاً من العناصر المختلفة والأجناس المتباينة : كان فيه العرب ، والفرس ، والسريان ، والترك، والروم . ولم يكن العنصر العربى سائداً ، وإن كان يحتفظ لنفسه بمراكز القيادة والتوجيه ، وكانت الطبقة العليا كلها تقريباً منه ، ولكن كان يشاركه فى ذلك العنصر الفارسى الذى بدأ يتغلب ويأخذ لنفسه مكانة يزاحم فيها العرب على القيادة ، فكان منهم وزراء وقادة وأمراء وحكام كما كان من العرب ، وكان منهم علماء وحكماء وفقهاء وأدباء وشعراء ...

وظلت المنافسة بين العرب والفرس تأخذ طريقها إلى الحياة العباسية منذ بدء الدولة العباسية ، ومقتل أبى مسلم الخراسانى على يد الخليفة العباسى ، ثم ظهرت فى صورة عنيفة أخرى فى نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد . ولم يقف تغلغل الفرس بل ظلوا يناضلون وكان نفوذهم فى عصر المأمون كبيراً . وقد روى طيفور أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال : « يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، أما قضاعة فإنها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله عز وجل مذ بعث نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهم شارياً ، اعزب فعل الله بك »[1] .

ولم يكن الأتراك أقل نشاطاً من العرب والفرس ، ولكن نشاطهم كان متجهاً إلى جوانب بعينها ، فكان اهتمامهم مركزاً فى الجيش ، وفى القصر، وكان القواد منهم يلعبون بمصاير الخلفاء ، وخدم القصر يأتمرون على أصحابه ؛

---

(١) « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢٢٦ .

أما الجند فكانوا يثيرون الشغب بين العامة بما يرتكبون من السلب والنهب .

وكان إلى جانب تلك الطبقة العليا والوسطى الطبقات الدنيا مكونة من جماعات الرقيق والموالى وأبنائهم وممن كانوا خليطاً . نصفهم من الفرس أو الترك أو اليونان ، وكانوا يسمون الهُجناء أو أبناء الإماء والسرارى . قال فيهم أحد الشعراء :

إنّ أولادَ السّرارى كثروا يا ربِّ فينا
ربِّ أدخلْنى بلاداً لا أرى فيها هجينا[١]

وكانت كل جماعة من الأجناس المختلفة تمتهن مهنة برعت فيها . فاليونان عرفوا بالحكم والآداب ، والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب فلاحة ، فيكونوا مهنة ، ولا أصحاب زراعة لخوفهم من صغار الجزية ... بل عرفوا بالاشتغال بقول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وقيافة الأثر وحفظ النسب ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، وعرف الأتراك بالحروب ، وعرف الهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة[١] . وقد تزاوجت هذه الخبرات كلها ، والتقت عقائد العرب والفرس واليونان والترك والهنود، وامتزجت عاداتهم وتقاليدهم ، وكونت منها نسيجاً مميزاً تلونت عناصره واتحدت فى اتساق ونظام واحد جمع بينها الذوق الإسلامى .

واشتهرت بغداد بالترف الزائد والغنى وزخرف الحضارة ، وتغلغل هذا فى حياة الناس، وكانت لحياة الترف دواعيها المختلفة، فالخيرات متدفقة على العاصمة من الأقاليم المختلفة ، والتجارة تغدو وتروح ، وتخترق قوافلها مختلف الأصقاع من الصين والهند شرقاً إلى بلاد الروم والمغرب غرباً ، وتمخر سفنها عباب البحار حاملة ما افتنّ فيه كل بلد وأبدع فأتى به إلى بغداد لتزين به قصور الخلفاء والأمراء وسادة القوم .

---

(١) « تاريخ العرب » لفيليب حتى ٢٥ ص ٤١٠ و « ضحى الإسلام » ١ /٢٦ .
(٢) « ضحى الإسلام » ١ /٧٢٦ ط ١٩٣٤ م .

وكان من مظاهر ذلك الترف كثرة الجوارى والغلمان ، وهم من لوازم القصور ومجالس اللهو والسمر ؛ لذلك كثرت الجوارى فى بيوت الناس ، واختلفت أعدادهن وميزاتهن من جمال وأدب وغناء بتفاوت غنى أصحابهن . وقد اعتنى بالجوارى فى ذلك العصر ، فعلمن وثقفن ودربن على الغناء ، واشتهرت من بينهن كثيرات بقول الشعر والغناء .

واختلفت جنسيات الجوارى فكان منهن هنديات وسنديات ، ومكيات ومدنيات ، وسودانيات وحبشيات ، وتركيات وروميات وأرمنيات . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين بألوان الحمام[١] .

ويروى أن المتوكل جمع فى قصره أربعة آلاف سرية من أجناس مختلفة . ودخل أحمد بن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومى ، وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون . فقال له المأمون : ويلك يا أحمد قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغننى فيها ثم أنشد :

ظبـــاء كالدنانير ملاح فى المقاصير
جـــلاهن الشعانين علينا فى الزنانير
وقد زرفن أصداغاً كأذناب الزرازير
وأقبلـــن بأوساط كأوساط الزنابير

وقد أثرت الجوارى فى حياة المجتمع البغدادى ؛ لما كن يتمتعن به من حرية وثقافة ، وظرف .

وعمرت بغداد بقصورها الفاخرة الزاخرة ؛ المزدانة بضروب الزينة ، وألوان الرياش النفيس ، وفنون المتع .

وعمرت مجالس الشراب فى القصور والحانات بالنشاط ، فكان يؤمها الشعراء ينشدون الشعر الرقيق ، والأدباء يتنادرون ويتبادلون الأحاديث الطلية ،

---

(١) « نفس المصدر » ١/٨٧ .

وكان يسمع فيها الغناء والموسيقى .

واشتهر أهل بغداد بالظرف ، والنظافة ، والملبس الجميل الفاخر من أنواع الخز والديباج ، وعرفوا بالرقة والكياسة ، فقد هذبت الحضارة سلوكهم ، وانتشر بينهم الذوق الجمالى ، وعشقوا الفن فى صوره المختلفة ، ومالوا للجمال فى الوجوه والصور ، وفى اللباس والسكن ، وفى الصوت ، وتعشقوه فى ألوان الزهور وعبيرها ، وفى العطور والطيب

وأحبوا اللهو فى الأعياد والمناسبات ، وشارك المسلمون النصارى واليهود فى أعيادهم ومطارحهم ، فكان الخلفاء يمتعون أنفسهم بزينة جواريهم فى أيام الشعانين ، وكان الشعراء والناس يطربون ويشربون ويفرحون فى أعياد النيروز ، فيخرجون إلى الرياض ، ومطارح اللهو ، والأديرة ، ويقضون أوقاتهم فى القصف والشرب ، وسماع الألحان .

وشرب الناس الخمر وأسرفوا فيها ، وكثرت الحانات فى بغداد ، كما كانت الأديرة تعتقها وتبيعها . واختلف الناس حول الخمر وأنواعها ، فأحل بعضهم النبيذ ، وحرمه آخرون ، وألّف ابن قتيبة كتابه فى « الأشربة » يصوّر ذلك الصراع بين مُحليه ومُحرميه . وصار القول فى الخمر ومجالسها من موضوعات الشعر المعروفة التى يحبها الناس ويرددونها ، والتى يتكثّر فيها الشعراء ويتأنقون ، فالنواسى ومسلم بن الوليد وغيرهما ممن عرفوا بذلك وتفننوا .

ويبدو أن الطبقة التى عبّت من نعيم الحضارة وزخرفها هى الطبقة العليا ، طبقة الحكام من خلفاء وأمراء وقواد ، ومن لَفَّ لفهم أو تعلق بهم ، وجماعة قليلة من الطبقة الوسطى من التجار وكبار الموظفين وأصحاب الحرف والمهن المربحة . أما الطبقة الدنيا ، فقد كانت تعيش فى بغداد على الحرمان ، وإن أصابت بعض ما يتفضل بإنفاقه الأثرياء والمقتدرون . وكان عامة بغداد على درجة كبيرة من الحساسية السياسية والدينية ، فكثيراً ما ثاروا على الحكام لانحرافاتهم السياسية والدينية ، وقد ناصر عوام بغداد الأمين على المأمون ، ونصبوا

إبراهيم المهدى . وثاروا مع الحنابلة لمقاومة موجات الإباحية والإلحاد .

ومهما يكن من شيء فإن صور الحياة البغدادية قد ظهرت متألقة فى كثير من الكتب ، وقصص « ألف ليلة وليلة » . وقد قال المسعودى المؤرخ مصوّراً حياة بغداد أيام المتوكل : « وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورقة العيش بها أيام سراء لا ضراء » . كما قال بعضهم : « كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر . وأمانى الحب ، وأيام الشباب » .

٣ ــ الحياة الفكرية والأدبية

ا ــ طلب العلم وحرية الرأى :

بدأ هذا العصر بالمأمون ، وكان عالماً أديباً محبًّا للعلم والأدباء ، يهوى مجالستهم ، ويعقد المناظرات ويشترك فيها ويجيز المتفوق المبرز . ويروى عن حبه للعلم أنه قال لأحد بنى العباس وقد سأله : أيحسن بمثلى طلب العلم ؟ فقال : نعم ، والله لأن تموت طالباً للعلم أزين بك من أن تموت قانعاً بالجهل[١] .

وأطلق المأمون حرية القول . ولم تغد عصبية الخلفاء للعنصر العربى مثلها فى عهد بنى أمية فبدأت الأقلام تجول والألسنة تتحرك ، وقويت حركة الشعوبية[٢] ، والطعن فى العرب ، وقد أدت هذه الحركة إلى نشاط فكرى كان من ثمراته مجموعة من الكتب تتكلم فى النقص من العرب وقلة محصولهم فى الثقافة والحضارة ، ويقابلها مجموعة أخرى تنتصر لهم ، ومن هؤلاء ابن قتيبة ، وله كتاب فى تفضيل العرب على العجم[٣] .

ب ــ المعتزلة وأهل السنة :

واهتم المأمون بالمناظرة بين العلماء فى مسائل الدين والفلسفة ، وكان يجمعهم

---

(١) « الموشى » ط الخانجى ١٩٥٣ ص ١٢ .

(٢) الشعوبية : قوم لا يفضلون العرب على العجم .

(٣) نشره كرد على فى « رسائل البلغاء » .

إليه . ذكر طيفور فى تاريخ بغداد أن يحيي بن أكثم قال : « أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً »[١] . وأهم موضوع شغل به وشغل الناس مسألة خلق القرآن التى تركز حولها الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة . وعرف المأمون برأيه الحر ، وحبه للفلسفة ، ولذلك قرب المعتزلة والمتكلمين . واعتنق آراءهم . وانتصر لهم بالقول والعمل ، وتتبع أعداءهم فضيق عليهم وآذاهم .

واستن المعتصم والواثق من بعده سنته ، فنال أهل السنة وأصحاب الحديث كثير من الضيم . فعذب أحمد بن حنبل صاحب المذهب المشهور وغيره من الفقهاء والأعلام . وجاء المتوكل ، وكان لا يميل للنظر والكلام ، فأبطل نصرة المعتزلة ، وعاد للحديث والسنة . وأمر الناس باتباعها وترك ما دونها .

وكانت حركة المعتزلة وأهل السنة من أبرز الحركات الفكرية فى القرن الثالث الهجرى ، لذلك نرى أن نبرز وجوه الخلاف الرئيسية بينهما .

أولا — القدر وأفعال العباد ، كان المعتزلة يرون أن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب ، فى حين يرى أهل السنة أن الأعمال مخلوقة لله ، وليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم . ولذلك سمى المعتزلة أهل السنة بالقدرية لأنهم أرجعوا أفعال العباد إلى القدر[٢] .

ثانياً — صفات الله . عمد المعتزلة إلى تنزيهه تعالى عن كل صفات قائمة بذاته مثل القدرة والإرادة والسمع والبصر ، والحياة والكلام ، أى أنه لا انفصال لصفاته عن ذاته . فالله قادر بذاته ؛ فى حين يرى أهل السنة أن الله قدير بقدرة ، وهى صفة قائمة بالذات[٣] وليست عين الذات .

---

(١) الخضرى ٢٣٢/٢٣٣ .

(٢) راجع رد ابن قتيبة على ذلك فى « تأويل مختلف الحديث » ٥ — ١٩ .

(٣) تفرع على هذه المسألة مسألة خلق القرآن ، فقد ذكر المعتزلة أنه مخلوق ، وأنه خلق معنى فى قلب الرسول ، وأما اللفظ والأسلوب فليسا من كلام الله لأنه شىء محدود ، ولا يجوز أن نصف الله بصفة محدودة ، (راجع حجج النبوة للجاحظ من رسائل الجاحظ ط السندوبى) ، على حين يرى أهل السنة أن القرآن بكل حال مقروءاً ومكتوباً ومسموعاً ومحفوظاً غير مخلوق .

ثالثاً — هناك جملة مسائل أخرى كانت موضع خلاف بين الطائفتين تقل عن المسألتين السابقتين أهمية ومنها مسألة الحديث وتدقيق المعتزلة فى روايته والاعتماد عليه ، والقول فى إعجاز القرآن ، ويرى بعض المعتزلة كالنظام أنه معجز بالصرفة ، أى أن أسلوبه فى قدرة العرب ، وإنما صرفهم الله عن تقليده ؛ فى حين يجمع أهل السنة وجماعة من المعتزلة على إعجاز القرآن فى بيانه لأنه فوق مستوى قدرهم . وسنعرض عند الكلام عن موقف ابن قتيبة من المعتزلة بشىء من التفصيل لتلك المسائل جميعاً .

ج — العلوم الدينية :

نشطت الدراسات الدينية المختلفة ، وخاصة ما يتصل منها بأصول الدين والعقيدة ، وكان لحركة الاعتزال كما بينا أثر كبير فى ذلك النشاط ، فقد تزود أهل ذلك العصر بكثير من العلوم العقلية من تراث الأمم المختلفة كاليونان والفرس والهنود ، واستخدموا ذلك الزاد فى بحوثهم الدينية فى الإسلام ، كما أن ترجمة كثير من الكتب الدينية كالتوراة ، والإنجيل، والاطلاع على غير الكتب السماوية ككتاب « أفستا » لزرادشت وغيره ساعدت كثيراً فى ازدهار البحوث الدينية ، ولعل من أبرز أبطالها فى هذا العصر النظام ، والجاحظ ، وابن قتيبة .

وصاحبَ تلك الحركة حركات أخرى وجهت عنايتها للقرآن نفسه فى مختلف نواحيه ؛ تفسيره ، وغريبه ، ومشكله . وقامت جماعة اللغويين بدراسة أسلوب القرآن من ناحيته اللغوية ، ألفاظه ومعانيها ، وتراكيبها ، كما اتجهت جماعة الإخباريين إلى جمع ما يدور حول الآيات من أسباب النزول ، والظروف والملابسات المختلفة . وما قيل فى تأويلها من الصحابة والسابقين . فى حين وجهت جماعة أخرى عنايتها إلى ما ينطوى عليه أسلوب القرآن من ضروب النكت البيانية والمعنوية ، وكان هدف هذه الجماعة الأخيرة أن تجلى ما قد يغمض على بعض الأفهام ، أو يستشكل أمام بعض العقول من آيات المتشابه ،

فكان عليها أن ترد المطاعن والشكوك .

وحظى الحديث بما حظى به القرآن من العناية والدراسة ، فتناولوه بالجمع ، والتنقية والشرح ، وإفراد الغريب ، وتوضيح مشكله . وقد تعرضت دراسات الحديث لكثير من الجدل بين المعتزلة وأهل السنة . وذلك لأن المعتزلة كانوا يشكون فى كل حديث لا يتفق والأصول التى يرونها ، كما طعن بعضهم فى مبدأ الأخذ بالإجماع ، فقال النظام إنه يجوز الإجماع على الخطأ . ولكن أهل السنة جمعوا كثيراً من الأحاديث وضمنوها كتباً تعد من أهم ما ظهر فى الحديث مثل مسند أحمد بن حنبل ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وابن ماجة ، وابن داوود ، والترمذى والنسائى .

وتبع ازدهار دراسات القرآن والحديث ازدهار الشريعة والفقه ، ومن أبرز فقهاء العصر الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ، وكان الفقهاء فى أول العصر العباسى قد انقسموا إلى قسمين : أهل الحديث ، وأهل القياس ، وكان على رأس الفريق الأول عالم المدينة مالك بن أنس والشافعى وابن حنبل ، ووقف على رأس الفريق الثانى الإمام أبو حنيفة النعمان . وكان الشافعى يقول : إذا وجدتم لى مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبى ، فاعلموا أن مذهبى ذلك الخبر .

وقد عاصر ابن قتيبة من الأئمة الأربعة أحمد بن حنبل (ت سنة ٢٤١ هـ) وكان مذهبه رد فعل لحركة المعتزلة ونتيجة لشيوع كثير من العقائد المختلطة الوافدة من الشرق والغرب ، فكانت دعوته إلى التمسك بالحديث والسنة ؛ والتشدد فى ذلك حتى ضرب بها المثل رغبة فى المحافظة على قدسية العقيدة أمام التيارات الغريبة .

د ـ العلوم العقلية :

أشرنا إلى اهتمام الناس بالعلوم العقلية ، وذكرنا ما كان من عناية المأمون

بها وحث الناس على البحث والمناظرة ، والترجمة عن اليونان والفرس ، وكان المأمون معجباً بفلاسفة اليونان وخاصة أرسططاليس ، وحدثت بين المأمون وملك الروم مراسلات طلب المأمون إليه فيها أن يبعث بما عنده من مختار العلوم القديمة . وأوفد لذلك جماعة من العلماء من بينهم الحجاج بن مطر وابن البطريق . فاختاروا مما وجدوه وحملوه إليه فأمرهم بنقله فنقل . وقد بلغ عدد الكتب التى نقلت عن اليونانية فى ذلك العصر بضع مئات[١] فى الفلسفة والأدب والمنطق لأفلاطون وأرسطو وفى الطب لأبقراط وجالينوس ، وفى الرياضيات والنجوم لإقليدس وأرشميدس وغيرهما . واشتهر من النقلة على ذلك العهد حنين بن إسحاق (ت سنة ٢٦٠ هـ) ، شجعه بنو المنجم على الرحلة إلى بلاد الروم لنقل الكتب ، وكان فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية .

وكان نتيجة لتلك الحركة الواسعة ، انكباب العرب على دراستها والإفادة منها ونبغ جماعة من بينهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وفيلسوف العرب الكندى يعقوب بن إسحاق .

ويمكن أن نسجل ظاهرة تسترعى الانتباه ، وهى أن العرب حين ترجموا كثيراً من تراث اليونان لم يتعرضوا لآدابهم القديمة مثل الإلياذة والأوذيسة لهوميروس ، ولعل السبب هو ما كانت تفيض به من حكاية لأخبار الآلهة ، مما يتنافى مع العقيدة الإسلامية لذلك نبذوها ولم يهتموا بها .

(هـ) العلوم اللغوية والأدبية :

سبقت هذا العصر حركة بعث لغوية قادها جماعة من اللغويين النابهين فاشتهر بدراسات النحو من البصريين ، إمامهم سيبويه ، ومن الكوفيين الكسائى ، وتبعهم فى رواية اللغة أبو عبيدة والأصمعى والفراء والأخفش وأبو حاتم السجستانى وابن السكيت وابن الأعرابى ، وأبو زيد الأنصارى ، وأبو عبيد القاسم بن

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجي زيدان حـ ٢ .

سلام، والمازنى ، وثعلب، والمبرد . وكان لكل عالم من هؤلاء اتجاهه الذى غلب على كتبه وصبغها بصبغة خاصة : فأبو عبيدة راوية لغة وأخبار : وكتابه المشهور به والمطبوع « نقائض جرير والفرزدق » شاهد صدق على ذلك ، كما أن له كتاب « مجاز القرآن » فى تفسير القرآن تفسيراً لغوياً ، والأصمعى عالم لغة مدقق، وصف مذهبه « بالتنقية اللغوية »[١] ، ولا يخلو كتاب من كتب المتأخرين فى اللغة وتفسير الشعر من نقل عنه أو إشارة إليه . كما اشتهر أمثال أبى عبيد القاسم بن سلام ، وأبى حاتم السجستانى بالتأليف فى غريب القرآن وغريب الحديث ، ويروى عن أبى عبيدة أنه ألف بضعة وعشرين كتاباً فى القرآن والحديث وغريبهما[٢] واهتم المازنى بالتصريف ، وقيل إنه أول من دون علم التصريف ، وكان متصلا بالنحو[٣] . وعرف ابن السكيت بأنه كان آخر نحاة الكوفة ، ومن كتبه المعروفة « إصلاح المنطق » ، و « تهذيب الألفاظ » . واتجه بعض أولئك اللغويين إلى الأدب ، فجمعوا النوادر الأدبية كنوادر أبى زيد ، أو جمعوا النوادر الشعرية كما فعل القرشى فى الجمهرة ، أو شرحوا الدواوين كما فعل ثعلب فى شرح ديوان زهير ، أو ألفوا بين الأدب واللغة فى كتب جامعة كما فعل المبرد فى « الكامل فى اللغة والأدب » .

وشهد العصر نهضة أدبية واسعة شملت جميع جوانب الأدب : كالأخبار الأدبية والشعر، والكتابة والنقد ؛ فمن اهتم بالأخبار الأدبية والنقد معاً محمد ابن سلام الجمحى الناقد الراوية (ت سنة ٢٣٢ هـ) ؛ وكان عالماً بالشعر والأخبار ، واشتهر كتابه « طبقات فحول الشعراء » . وكان من أول ما ألف فى موضوعه ، وقد قسم فيه الشعراء فى الجاهلية والإسلام إلى طبقات ، وتعرض للشعر وأصوله ، وأثر البيئة فيه ، كما تعرض لمقاييس الحكم على الشعراء وصلتها

(١) كتاب « العربية » ليوهان فك .

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان .

(٣) نفس المصدر .

بالقلة والكثرة فى إنتاجهم .

واشتهر من الشعراء جماعة من الفحول المبرزين كأبى تمام حبيب بن أوس الطائى وأبى عبادة البحترى ودعبل ، وابن الرومى وابن المعتز .

وكان لكل شاعر من هؤلاء لونه واتجاهه الموضوعى والفنى ، فقد عرف أبو تمام بميله للصنعة والتكلف فى شعره ؛ كما عرف بإغراقه فى المعانى ، إلا أنه مع ذلك كان يتمتع بشاعرية غنية أضفت على قصائده رونقاً وجمالاً وقوة أسر . ويقابل أباتمام ويعاكسه فى اتجاهه البحترى فقد عرف برقة شعره ، وحسن ديباجته ، وجرس ألفاظه ، وبمائه ورونقه حتى إن كثيراً من النقاد مثل الآمدى فضله على أبى تمام ، وكان لا يميل فى معانيه إلى العمق والتعقيد وإعمال المنطق، بل كان يقول للمنطقيين :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه

وعرف دعبل بقصائد العلوية ، واشتهر بين الناس بسلاطة اللسان ، والهجاء اللاذع ،ولم يخل كلامه من معان رائقة تداولتها كتب البلاغة مثل بيته المشهور :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وانفرد ابن الرومى بطابع وحده ، ونسيج لم يشاركه فيه غيره ، فقد عرف بتوليد المعانى وتنويعها ، وطول النفس ، واستخدامه للألفاظ فى صور حية ناطقة ، وأما ابن المعتز فهو الشاعر الأمير ذو التشبيهات الرائعة ، والألوان الزاهية البراقة الناطقة بالنعمة والجمال الفنى .

وقد غلبت على الشعر فى هذا العصر الاتجاهات الجديدة فى المعانى والأساليب والتى بدأت تظهر على لسان بشار ، وأبى نواس وطبقته كمسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك الخليع . وكان من شأن هذه الاتجاهات أن تثير جدالاً طويلا بين المحافظين من اللغويين ومن جرى على نهجهم ، وبين تلك الطبقة من الشعراء ، ومن سار على مذاهبهم من الكتاب ، ومن وافقهم من النقاد والأدباء . لهذا كان القرن الثالث ، وخاصة النصف الأخير منه بدءاً لحركة قوية فى النقد كان من أعلامها المبرزين الجاحظ وابن قتيبة، وابن المعتز.

الفصل الثانى

ابن قتيبة فى عصره

١ — نشأته

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى[١] ، كان والده فارسياً من مرو الروذ[٢] وتختلف المصادر فى البلد الذى ولد فيه ابن قتيبة ، فيذكر ابن النديم أنه الكوفة[٣] ويذكر الخطيب البغدادى أنه بغداد[٤] . ويبدو أنه ولد بالكوفة ، ولم يقم بها كثيراً فانتقل فى صباه على الأرجح إلى مدينة السلام ، فطالت إقامته بها حتى عد من أبنائها .

وقد أثرت حياة بغداد فى نشأته الفكرية ، إذ أنه تلقى العلم على جماعة من علمائها الأجلاء ، فأخذ الحديث عن أئمته المشهورين فيه مثل إسحاق بن راهويه ، وتلقى النحو عن جماعة من علماء الكوفة والبصرة ، مثل أبى حاتم السجستانى .

وتأثر فى شبابه بما كان يدور فى أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة ، ولمس فى فجر حياته غلبة المعتزلة على الحياة الفكرية ، فأعجب — على مايبدو — بآرائهم كما يحكى فى « تأويل مختلف الحديث »[٥] .

---

(١) دينور : وديهور فى المصادر السريانية مدينة من أهم مدن جبال Media يرجع تأسيسها إلى الجاهلية وكانت فى عهد الخليفة عمر أعمر مدينة فى إقليم همذان وقد سلمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوند الحاسمة مباشرة (حوالى عام ٢١ ﻫ) وقد ازدهرت أيضاً ازدهاراً كبيراً فى عهد الأمويين والعباسيين .

(٢) « الأشربة » لمحمد كرد على — ص ١ .

(٣) « الفهرست » ط أوربا .

(٤) « تاريخ بغداد » ١٠ / ١٧٠ .

(٥) « تأويل مختلف الحديث » ص ٧٤ .

وقد اختير قاضياً لمدينة الدينور ، وهي بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين كان بها جماعة من العلماء والمحدثين والمشايخ المشاهير [١] ، وقضى بالدينور زمناً اتصل فيه بأولئك المحدثين والفقهاء ، وتدارس أمور الدين والفقه ، ثم عاد إلى بغداد، وهناك وجد شمس المعتزلة آخذة فى الأفول بعد أن تولى الخلافة جعفر المتوكل ، وساعد أهل الحديث والسنة على الظهور على منافسيهم . فتقدم هو ليدلى بدلوه، وينتصر للسنة، ويجمع من الآراء، والكتب ما يعينه على ذلك.

واتصل ابن قتيبة فى بغداد برجال الدولة كعادة غيره من العلماء والأدباء وعرف منهم فى ذلك الوقت الوزير أبا الحسن عبيد الله بن يحيي بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد[٢] وأهدى إليه كتابه « أدب الكاتب » .

واستمرت حياته العلمية ببغداد ، فاشتغل بالتدريس للناس زمناً[٣] ، وكان يقرأ كتبه على تلاميذه ، ومن بينهم جماعة من العلماء الذين نبهوا بعد ذلك وكان لهم نتاج معروف مثل ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى حدث بكتب أبيه فى مصر حين ولى القضاء بها ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الكاتب الفارسى صاحب « أدب الكتاب » .

وقد شارك مشاركة جدية فى محاربة نزعات الشك والفلسفة التى غلبت على العقول فى ذلك الوقت ، وسيتضح هذا عند تناول اتجاهاته المختلفة فى كتبه . وقد توفى ابن قتيبة بعد أن قضى حياته فى خدمة الدين والأدب سنة ست وسبعين ومائتين على الأرجح[٤]، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة

---

(١) قرميسين : تشمل الأراضى السفلى من جبال ذا طسوجين أما دينور فتشمل الأراضى العليا منها .

(٢) « الأنساب » ٢٣٨ ط أوربا .

(٣) « وفيات الأعيان » ٢/٢٤٦ ط محيى الدين .

(٤) اختلفت المصادر فى سنة وفاته بين ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .

راجع « ابن خلكان » طبع باريس ١/٣٥٤ و « تاريخ بغداد » ط السعادة ١٩٣١ ١٠/١٧٠ — ١٧٦ .

سمعت من بعد ثم أغمي عليه ، ومات . وقيل إنه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه إلى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ .

٢ ــ ثقافته وآراؤه وعقائده

ذكرنا عند الكلام عن ثقافة العصر أن المعتزلة أثاروا حركة فكرية واسعة فى عصر المأمون والمعتصم ، وأن كثيراً من الكتب اليونانية وغيرها من مختلف الثقافات قد نقلت إلى العربية وأثرت تأثيراً عظيماً فى ثقافة العصر وثمراته الباقية ، وأشرنا إلى النضال الفكرى بين المعتزلة وأهل السنة ، ولما كان ابن قتيبة أحد أبطال ذلك النضال ، فينبغى أن نقف عنده لنتعرف على جوانبه .

اتجه ابن قتيبة فى مطلع حياته إلى علم الكلام ، واجتذبته أضواؤه ، فجلس إلى كثير من علماء المتكلمين وأخذ عنهم واغترّ بكلامهم فقد قال : « وقد كنت فى عنفوان الشباب وتطلب الآداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغترّ بهم طامع أن أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدى لرشد ، فأرى من جرأتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس أو لئلا يقع انقطاع ، ما أرجع معه خاسراً نادماً »[١] .

وقد أفاده اطلاعه على آراء المتكلمين فى جداله معهم ، إذ قارعهم الحجة بالحجة ، وقال لهم بالكيل الذى كالوا به لأهل السنة والحديث ، وتأثر ابن قتيبة بآراء أبى حاتم السجستانى وشيخه المحدث إسحاق بن راهويه ودافع عنها[٢] .

ويبدو أنه كان ملمًّا بالفارسية[٣] ، مطلعاً على كثير مما جاء فى الكتب السماوية مترجماً ؛ فقد استشهد فى كثير من آرائه بما جاء فى التوراة والإنجيل .

---

(١) « تأويل مختلف الحديث » ص ٧٤ .

(٢) « تأويل مختلف الحديث » ص ٦٥ .

(٣) كثيراً ما يذكر فى كتبه « قرأت فى كتب العجم كذا وكذا » .

وفى كتبه دلائل كثيرة على إلمامه بالفلسفة ، منها ما ينقله عن أرسطو صاحب المنطق : كما ينقل عنه بعض المعلومات فى الطبيعة كأن يقول : « وكيف لا يعجبون من حجر يجذب الحديد من بعد ويطيعه حتى يذهب به يميناً وشمالا بذهابه ، وهذا حجر المغناطيس ، وكيف صدقوا بقول أرسططاليس فى حجر السنقيل أنه إذا ربط على بطن صاحب الاستسقاء نشف منه الماء إلخ[١]. كما أنه يذكر فى « تأويل مختلف الحديث » أنه اتصل بأيوب المتطبب ، وحنين ابن إسحاق .

واختلطت دراساته الفلسفية ، والمنقولة عن العجم واليونان بآرائه الدينية ، ومع أنه كان من المنتصرين لأهل السنة المدافعين عن مبادئهم وآرائهم ، فقد اتهمه بعضهم بالخروج ؛ قال الذهبى[٢] : « وقال الحاكم أجمعت الأمة على أن القتبى كذاب ، واتهم بأنه كان خبيث اللسان يقع فى كبار العلماء »[٣] . كما اتهم بأنه منحرف عن العترة ، وأنه يميل إلى التشبيه ، ويرى رأى الكرامية الذين يغالون فى التشبيه والتجسيم . قال الذهبى : « قال البيهقى كان يرى رأى الكرامية »[٤] .

ولم يرض عنه أنصار الفلسفة ، وساءهم هجومه عليها وتقليله من شأنها ، فاتهم بالجهل بها وعدم المعرفة .

ولكنه على الرغم من تلك الاتهامات التى وجهت إليه ظل محتفظاً بمكانته العلمية الرفيعة ، وظل يمثل الجاحظ فى أهل السنة ، ولم ينس فضله جماعة من فضلاء المؤرخين ، فأشادوا به . ومن هؤلاء الخطيب البغدادى ، والحافظ الذهبى ، والسيوطى — وقد سخر من قول الحاكم « اجتمعت الأمة على أنه كذاب »

---

(١) « أدب الكاتب » و « شرح أدب الكتاب » للبطليوسى ص ٤٣٨ .

(٢) مقدمة « الأشربة » لمحمد كرد على ص ٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥ .

(٤) « ميزان الاعتدال » .

فقال : « وما أعلم الأمة اجتمعت إلا على كذب الدجال ومسيلمة ! ! »[١]
وقدره ابن تيمية حق قدره ، ووضعه فى المكان اللائق ، ونفى عنه ما وجه إليه من طعن وتجريح ودافع عنه فى تهمة التشبيه وقوله بآراء الكرامية ، واعترف بأنه إمام أهل السنة فى زمن كان الجاحظ فيه إمام المعتزلة وخطيبهم قال : « وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة » ، ويقولون: كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه[٢] .

وذكر يوهان فك فى « العربية » أنه أبرز الأدباء الممثلين للتجديد السنى[٣].

ويعتبر ابن قتيبة كاتب أهل السنة فى النصف الأخير من القرن الثالث ، فقد ألف كثيراً من الكتب تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه إليهما من اتهامات على أيدى المعتزلة ، وانتصر للمذهب ، وللمحدثين ومناهجهم فى العلم والعقيدة ، وأظهر هذه الكتب وأسيرها كتاب « تأويل مختلف الحديث » ، و « الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة » ، و « المسائل والأجوبة »

والأساس الذى تقوم عليه آراؤه هنا لا تتضح حتى نعرض لما كان يوجهه المعتزلة لأهل السنة من اتهامات ؛ فقد عرف المعتزلة بأنهم أهل التوحيد والعدل لأنها أصل عقيدتهم أو فلسفتهم الدينية ، والتوحيد عندهم أن الله واحد منزه عن الخلق لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء ، وكل ما يمس هذا الاعتقاد من قريب أو بعيد عندهم فهو باطل مشكوك فيه ، ويتفرع على هذا أن الله تعالى لا تنفصل صفاته عن ذاته ، ولا يجوز أن يشبه خلقه فى شىء من تلك الصفات ، لذلك تأولوا ما جاء فى القرآن من ألفاظ قد توحى بغير عقيدتهم . ويرى أهل السنة التسليم بما جاء فى القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه ، وهم وراء هذا يرون أن صفات الله تعالى منفصلة عن ذاته ، فالله عالم بعلم وقادر

---

(١) « بغية الوعاة » .
(٢) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص ١٣٣ ط المنيرية بمصر سنة ١٣٥٢ .
(٣) « العربية » ص ١٣١ .

بقدرة . وقد يوضح هذا الخلاف ما ذكره الطبرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ﴾ قال : وقد اختلف أهل الجدل — وهم المتكلمون — فى تأويل قوله تعالى ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ قال بعضهم عنى باليد النعمة أو القوة أو الملك، وقال آخرون : بل يد الله صفة من صفاته، هى يد غير أنها ليست بجارحة، واستدلوا على استحالة المعنى الأول بأدلة منها قالوا : وذلك أن الله — تعالى ذكره — أخبر عن خصوصية آدم بما خصه به من خلقه إياه بيده ، وكان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، إذا كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ، ومشيئته فى خلقه تعمه ، وهو لجميعهم مالك . قالوا: وإذا كان — تعالى ذكره — قد خص آدم بذكره خلقه إياه بيده دون غيره من عباده ، كان معلوماً أنه إنما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق ، وإذا كان كذلك بطل قول من قال : معنى اليد من الله القوة أو النعمة أو الملك[١] .

وأما مبدأ العدل فمعناه أن الله عادل لم يخلق الناس وهو مقدر لما يعملون من خير أو شر ، وإلا ما كان ثواب الجنة وعذاب النار ، فأعمال الإنسان فى الحياة باختياره ، ليس من العدل نسبتها للقدر . وإنما غاية الأمر أن الله تعالى يصطفى من عباده الأخيار من يرضى عنهم فيهبهم اللطف الذى يعينهم على السير فى طريق الخير ، ويحجبه عن عباده الذين لا يرضى عنهم فيسيرون كما توحى لهم أنفسهم .

ويرى أهل السنة عكس ذلك ، وأن القدر يتدخل فى أعمال الإنسان ، لذلك سموا المعتزلة بالقدرية ، لأنهم نسبوا القدر إلى أنفسهم .

تلك هى الأصول ، وأما الفروع فما اختلفوا فيه منها القول فى إعجاز القرآن ، فقد خرج النظام على جماعة المسلمين برأى فى الإعجاز مؤداه أن القرآن معجز لأن الله صرف الخلق عن الإتيان بمثله قال الشهرستانى : « إنه

---

(١) « تفسير الطبرى » . وراجع « مذاهب التفسير » لجولد تسيهر ص ٩٥ .

كان يرى أن إعجاز القرآن من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما »[١] .

وقال الجاحظ تلميذه : إن النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان[٢] .

ويرى أكثر المعتزلة وأهل السنة أن القرآن معجز ببيانه وأسلوبه الرائع الذى لاتستطيعه العرب ، والذى ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم . يقول الجاحظ إن معجزة النبى فى القرآن كانت قاطعة ، وكان موقعها فى العقول كموقع فلق البحر بالنسبة للعين[٣] ، كما يذكر أن العرب لم يقدروا على الإتيان بمثله عجزاً ووهناً ، لا تهاوناً ولا تغافلا ، لأن الإتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم شر قتل الأنفس والأولاد . ثم يرى أن الإعجاز متصل بالنظم وحده ، أى الأسلوب ، بصرف النظر عن معانيه[٤] .

وتعرض كثير من العلماء فى عصر الجاحظ لإعجاز القرآن من ناحية نظمه وبيانه ، وتعرض ابن قتيبة من وجهة نظر أهل السنة لهذه المسألة فى كتابه « مشكل القرآن » على ما سنعرض له عند تحليل الكتاب .

وكان الخلاف بينهم حول تفسير ما جاء فى القرآن من آيات المجاز والتشبيه والاستعارة وما يماثلها كذلك فى الحديث . قال الجاحظ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إنها شجرة تنبت فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ « وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل فى

---

(١) « الملل والنحل » طبع ليبزج ص ٣٩ .
(٢) « رسائل الجاحظ » طبع السندوبى ص ١٤٧ .
(٣) « رسائل الجاحظ » طبع السندوبى ص ١٤٣ .
(٤) « أثر القرآن فى تطور النقد » لمحمد زغلول سلام ص ٧٥ .

طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين ، واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير ، وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله فى طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن »[١]. وقال : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير »[٢]. وقال النظام : « لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ».

واختلف ابن قتيبة مع المعتزلة والجاحظ ، فإنه كان يرى كما قلنا رأى مذهبه ، ولا يحاول أن يبعد فى التأويل ، بل يفسر فى حدود النص تفسيراً لغويًّا محدوداً على قدر ما تسمح به معانى الألفاظ الظاهرة . وقد اتهم بالتشبيه والتجسيم ، ولعل ذلك راجع إلى بعض ما أورده فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » ولكنه أوضح موقفه بصورة ناضجة فى « تأويل مشكل القرآن » ، فهو فيه معتدل لا يأخذ بمذهب أصحاب الظاهر من اللغويين ، كما ينفى تفسير المشبهة ، ويعرض فى كتاب « الرد على الجهمية والمشبهة » ما انزلق إليه هؤلاء من أخطاء .

وعارض المعتزلة المحدثين حول ما يمكن الاعتماد عليه من الحديث ، فكان عمرو بن عبيد لا يثق بهم[٣] . وقد ذكر ابن قتيبة أنهم اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض ، وأن النظام أنكر حجية الإجماع ، وغلب عليه القياس المنطقى ، والجواز العقلى ، كما أنهم نالوا من المحدثين بالسخرية ، والاتهام بالجهل وقلة المعرفة بالشعر واللغة ، أو أنهم « أجهل الناس بما يحملون وأبخس الناس حظًّا فيما يطلبون » ، وقالوا فى ذلك :

زوامل فى الأشعار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر

---

(١) « الحيوان » ٤ / ٣٩ .

(٢) نفس المصدر ٦ / ٢١٢ .

(٣) « أثر القرآن فى تطور النقد » ص ٦٧ .

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأحماله ، أو راح ، ما فى الغرائر

وأنهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه . ورضوا بأن يقولوا : « فلان عارف بالطرق راوية للحديث ، وزهدوا فى أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم »[١] .

ويرد ابن قتيبة على هذه الآراء رداً شاملا جامعاً فيرى « أن معانى الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر ، والكيفية والكمية ، والأينية ، ولو ردوا المشكل منها إلى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج »[٢]. وعنده أن إطلاق الأمر للرأى والقياس فى المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى ، وقدرته ، ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يدعو إلى الخلاف والزيغ ، والأحسن فيها أن نلجأ إلى الحديث ونؤمن بما جاء به متعلقاً بها ، لأنها فى رأيه « أمور لا يعلمها نبى إلا بوحى من الله تعالى »[٣].

وبالرغم من دفاع ابن قتيبة عن الحديث ، فإنه لم يكن محدثاً بالمعنى المعروف ، قال الحافظ الذهبى : « أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية »[٤] ، وقال : «ابن قتيبة من أوعية العلم ؛ لكنه قليل العمل فى الحديث »[٥] ، وله كتاب فى « غريب الحديث » ، وآخر فى « إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبى عبيد » .

وكان يذهب فى الفروع مذهب أحمد بن حنبل ، فقد عاصره وأخذ عنه ، قال ابن تيمية : « وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد »[٦].

---

(١) « تأويل مختلف الحديث » ص ١٠ — ١١ .

(٢) نفس المصدر ص ١١١ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٧ .

(٤) « ميزان الاعتدال » ٢ / ٧٧ .

(٥) « تذكرة الحفاظ » ٢ / ١٨٧ .

(٦) « تفسير سورة الإخلاص » ص ١٢١ .

٣ – بين ابن قتيبة والجاحظ

ذكر ابن قتيبة أنه أخذ عن الجاحظ وأنه أجازه ببعض كتبه[١] ، وقال ابن تيمية : ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ؛ فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة . وقد ذكر محمد كرد على فى مقدمة كتاب « الأشربة » ما كان بين ابن قتيبة والجاحظ ، وكيف أنه عنف فى ردوده على الجاحظ ، واتهمه بالكذب ، وكان فيما يبدو مندفعاً فى حمية الذود عن آرائه وآراء شيوخه وأصحابه ، فأفلتت منه عبارات فيها عنف وتجريح لعالم جليل وأستاذ من أساتذة الفكر العربى . قال فى شأنه : « ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان وتراه يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل علياً رضى الله عنه ، ومرة يؤخره ؛ ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتبعه قال الجماز وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش ، ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر فى كتاب ذكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين ، ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم – وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل »[٢] .

---

(١) « عيون الأخبار » ج ٣ ص ١٩٩ .
(٢) « تأويل مختلف الحديث » ٧١ – ٧٢ .

٤ ـ تأثره وتأثيره

وتنوعت دراسات ابن قتيبة اللغوية ، وقد سبق ذكرنا لأساتذته فى هذا الميدان ، ولعل من أبرزهم أبا حاتم السجستانى تلميذ الأصمعى ، وروى عن الكوفيين ، وأخذ عن البصريين وخلط بين المذهبين . قال ابن النديم : « إنه كان يغلو فى البصريين إلا أنه خلط فى كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه ، عالماً باللغة والنحو »[١] . وكان البطليوسى يقول إنه ذو مذهب ضعيف فى النحو[٢] ، وهو مع ذلك — كما عده السيوطى من النحويين[٣] ، ويعتبر إماماً لمدرسة بغداد التى مزجت بين آراء الكوفة والبصرة[٤] .

والباحث فى كتبه يرى أنه يستشهد بآراء علماء المدينتين ، ويختار لنفسه مذهباً بينهما وتارة يفضل آراء علماء أحد الفريقين ، وترى هذا كثيراً فى كتبه ، فهو يفضل آناً رأى أبى حاتم ، وآناً آخر رأى ابن السكيت ، وتارة يأخذ بما قال الفراء ، وتارة بما قال الكسائى وسيبويه .

وذكر الأزهرى ما ألفه ابن قتيبة فى اللغة ، وما رد به على علمائها ، فقال : « وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، فإنه ألف كتباً فى مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب " غريب الحديث " ، وكتاباً فى الأنواء ، وكتاباً فى أدب الكتبة ، ورد على أبى عبيد حروفاً فى غريب الحديث سماها " إصلاح الغلط " ؛ وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التى غلط فيها ، وعلى الأكثر الذى أصاب فيه . فأما الحروف التى غلط فيها فإنى أثبتها فى مواقعها من كتابى ، ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه . وما رأيت أحداً يدفعه

(١) « الفهرست » ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » ٢٣ .

(٣) « بغية الوعاة » ٢٩١ .

(٤) « دائرة المعارف الإسلامية » م ٢٦٠ .

عن الصدق فيم يرويه عن أبي حاتم السجستانى ، والعباس بن الفرج الرياش ، وأبي سعيد المكفوف البغدادى . فأما ما يستبد فيه برأيه ؛ من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حرف غريب ، فإنه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة . وألفيته يحدث بالظن فى ما لا يعرفه ولا يحسنه ، ورأيت أبا بكر بن الأنبارى ينسبه إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، وقد رد عليه قريباً من ربع ما ألفه من مشكل القرآن »[١] .

ويذكر الأزهرى فيما يذكر أنه قيل عن ابن قتيبة إنه يروى عن سيبويه والأصمعى وأبي عمرو وهو لم ير منهم أحداً ، ولم ير فى هذا نقصاً أو انحرافاً لأنه أخذ عن جماعة ممن حضروا عليهم[٢] .

وقد ترك لنا فى مجموعة كتبه ما يشهد على علو كعبه فى اللغة رواية ودراية ، ومنها « كتاب غريب الحديث » ، و « إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبي عبيد » ، و « تفسير غريب القرآن » و كتاب « الأنواء » ، و كتاب « أدب الكاتب » .

وكان إلى جانب علمه باللغة أديباً واسع الاطلاع ، صاحب ذوق وبيان ، جامعاً لعلوم الأدب بمعناه العام ، راوية للشعر وأخباره ، ملمًّا بدقائقه ، محيطاً بكثير من المعارف العامة التى ينبغى للأديب أن يتزود بها ، وكان فى كتبه الأدبية رجلا ذواقة ، يحسن الاختيار[٣] ، ينظر فى الشعر برأى صائب ، ولم يحب تحكيم المنطق والعقل ، كما لم يمل للتعنت اللغوى ، بالصورة التى كان يلقى بها اللغويون شعر المحدثين ، وكان ذوقه الأدبى رائده فى تفسير المشكل من آيات القرآن ، فكان يرجع للذوق العربى ، ولا يحكم القياس .

---

(١) « التهذيب للأزهرى ص ١٣ .

(٢) راجع مقدمة « مشكل القرآن » بتحقيق السيد أحمد صقر ص ٣٨ .

(٣) قيل فى حسن الاختيار :

قد عرفناك باختيارك إذ كا — ن دليلا على اللبيب اختياره

وقد جمع إلى جانب هذا وذاك كثيراً مما يتصل بثقافة الكاتب والأديب من معارف عامة ، وسار على الدرب الذى انتهجه من قبل أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، ولذلك كان كثير من كتبه الأدبية يدور حول تربية الملكة العربية و « تحبيب اللغة إلى الدارسين والشادين »[١] . وكان يقصد من ورائها إلى إرشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، ووضع ثمرات ناضجة بين أيديهم يسهل عليهم هضمها والإفادة منها ، ولعل كتابه « أدب الكاتب » خير ما يمثل هذا الاتجاه الداعى إلى ثقافة الكتاب . يقول فى مقدمته : « فإنى رأيت كثيراً من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير . . إلخ » ولهذا يقول : « فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ، ويعفو أثره جعلت له حظًّا من غايتى وجزءاً من تأليفى ، فعملت لمعقل التأديب كتباً خفافاً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل لأنشطه لتحفظه ودراسته »[٢] .

وقد أعجب الناس بكتبه الأدبية ، ذكر السمعانى أن الأمير أبا نصر الميكالى قال : « تذاكرنا المتنزهات يوماً ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الأماكن غوطة دمشق ، وقال آخرون : بل نهر الأبلة . وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نهروان بغداد ، وقال بعضهم : شعب بوان بأرض فارس ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ ؛ فقال هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ . . قلنا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار للقتيبى والزهرة لابن داود »[٣] .

---

(١) محمد كرد على فى مقدمة « الأشربة » ص ٦ .
(٢) مقدمة « أدب الكاتب » .
(٣) « الأشربة » نشر محمد كرد على ص ٩ .

وقد عد ابن خلدون كتابه « أدب الكاتب » من دواوين الأدب الأربعة .

وكثرت مؤلفات ابن قتيبة فى مختلف علوم الدين واللغة والأدب حتى أربت على الخمسين فى قول كثير من العلماء ، وزادها بعضهم إلى ستين ونيف ، وبلغ بها آخرون إلى زهاء ثلاثمائة[١] .

---

(١) « تفسير سورة الإخلاص » ١٢٠ / ١٢١ .

الفصل الثالث

جوانب ابن قتيبة

١ – الفقيه العالم

ألف ابن قتيبة الفقيه العالم كثيراً من الكتب الدينية ، فمنها ما خص بدراسة القرآن كالكتب الآتية :

« مشكل القرآن » و « معانى القرآن » و « كتاب فى القراءات » و « إعراب القراءات » و « الرد على القائل بخلق القرآن » ، و « آداب القراءة » و « غريب القرآن » ؛ ومنها ما أداره على مسائل الحديث وله فى ذلك :

« غريب الحديث » و « مشكل الحديث » و « تأويل مختلف الحديث » و « إصلاح غلط أبى عبيد فى غريب الحديث » .

ومنها ما مزج فيه بين الفقه والأدب فى مثل كتاب « الأشربة » و كتاب « الميسر والقداح » .

(أ) كتاب « مشكل القرآن » :

وسنعرض من كتبه فى القرآن كتاب « مشكل القرآن » ، وقد جمع بينه وبين الغريب ابن مطرف فى كتاب « القرطين » ، ويمتاز كتاب المشكل بما فيه من روح المؤلف وثقافته ، وسعة أفقه ، وهو دراسة بيانية لأسلوب القرآن بصورة عامة ، ونجده فى مجموعة مؤلفاته الأولى : فقد ذكره فى « تأويل مختلف الحديث » ، وفى « أدب الكاتب » ، ويبدأ بمقدمة طويلة – كعادته فى كتبه – يعرض فيها لمسألة « إعجاز القرآن البيانى » من وجهة نظر أهل السنة فيقول :

« وقطع منه بعجز التأليف أطماع الكافرين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين » ويستمر فى إيضاح جوانب ذلك الإعجاز : فى النظم وسبك الألفاظ ، ودقة اختيارها لتلائم ما يراد لها من المعانى حتى تعبر عنها دون

تكلف ولا فضول، ويبين كذلك تلك الجوانب فى الموسيقى وما يتصل بها من الفواصل التى تنتهى بها الآيات ، بحيث تنسجم وتتلاءم ، فينتج عنها ما يحس به قارئ القرآن وسامعه من نغم حلو رتيب[1] يجذب إليه الأسماع ، ويأسر القلوب . وبما جمع وراء هذا المظهر الرائق من معان سامية تؤلف مورداً لا ينضب للمعرفة ، يرده المؤمنون فيقبسون ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم .

وهو بعد هذا وذاك يحمل دلائل الألوهية فى قوة الحجة ، وروعة النطق بأسرار الكون ، وخبايا الغيب ، ومشاهد اليوم الآخر .

تلك هى أصول النظرية العامة للإعجاز ، ولا يتناول ابن قتيبة هذه الأمور تفصيلا فى الكتاب بذلك الترتيب ، وإنما هو يعرض لها خلال كلامه عن مشكل القرآن . أو ما اختلف فيه الناس من تأويل آياته ، وما اعترض به المعترضون ، وتوهمه الواهمون .

وتتجلى فى هذا الكتاب ثقافة المؤلف الواسعة المتنوعة ، فهو حين يعرض للمسألة الدينية ، كخلق الكون ، يتناولها فى الكتب السماوية إلى جانب القرآن ، فيأتى بما جاء فى التوراة والإنجيل ؛ وحين يتكلم فى مسألة جدلية كثرت حولها آراء الفلاسفة ، يدلى بموجز لآرائهم تلك مع تعقيب عليهم بما يراه هو .

ولكن الجانب الغالب عليه ، والطابع المميز له هو تلك الثقافة اللغوية والأدبية الواسعة ، مع الإلمام الدقيق بخفايا الأسلوب العربى وأسراره ، بحيث يمكنه أن يوجّه معانى الآيات توجيهاً سديداً ، يتفق وتصوره ولا يتعارض مع الذوق .

واختلف ابن قتيبة مع كثير من سابقيه من أئمة اللغويين حول بعض آيات القرآن وخاصة ما جاء منها فى نطاق المجاز ، ومنها خلافه مع الفراء حول الجنتين فى قوله تعالى : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ ، فالفراء يقول : ذكر المفسرون أنهما جنتان ، بستانان من بساتين الجنة ، ويعقب على ذلك بأنه

---

(١) الرتيب : الثابت .

قد تكون جنة واحدة وجاءت مثناة على مذاهب بعض العرب فى تثنية الواحد مثل قولهم :

« ومهمهين قذفين مرتين »

يريد « مهمهاً واحداً »[١] .

ولا يرضى ابن قتيبة ذلك التعقيب من الفراء[٢] .

وهو مع مناصرته لآراء أهل السنة ، وأخذه فى كثير من الآيات بظاهر المعنى ، ونفوره من التأويل البعيد ، ومن فرض الاحتمالات الأسلوبية ، هو مع هذا كله يتحرر أحياناً ، ويخرج عن تقليده ذاك ، فيعارض بعض المفسرين والظاهريين من اللغويين فى تحكمهم اللفظى ، منهم من يرفض القول بالمجاز ، وهو القطب الذى تدور عليه قضية المشكل . والرأى عنده أن المجاز واقع فى القول ، ولا سبيل إلى إنكاره « ولو كان المجاز كذباً ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا كان أكثر كلامنا فاسداً ؛ ألا تقول: نبت البقل، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وقام الجبل ، ورخص السعر ؟ . والمجاز واقع فى القرآن أيضاً » . ويورد أمثلة لما جاء من المجاز فى القرآن ، مما لا يقبل الشك والتردد ، وينطوى تحت المجاز ألوان التعبير الفني الأخرى كالإيجاز ، والإطناب ، والاستعارة والتشبيه .

ويرى بالنسبة للاستعارة — وهى أهم تلك الألوان فى المشكل — « أن العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إن كان المسمى بها من الآخر أو مجاوراً له ، أو مشاكلا له » وعلى ضوء ذلك يفسر قوله تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ « أى عن شدة الأمر . . وأصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى المعاناة والجد فيه شمر عن ساقه عنده،فاستعيرت الساق فى موضع الشدة » وهذا عنده نظير قول دريد بن الصمة يرثى رجلا :

كميش الإزار خارج نصف ساقه　　　صبور على الجلاء طلاع أنجد

---

(١) « أثر القرآن » ص ٥١ .

(٢) « كتاب القرطيين » ص ١٤٩ .

وقول الهزلي :

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة أشمر حتى ينصف الساق مئزري[١]

ويرى أن المبالغة فى الاستعارة ليست كذباً — كقول بعض العلماء — وإنما هى من طريق إرادة التوضيح ، واستقصاء الصفة . وبذلك يرد على أولئك الذين يأخذون على الشعراء الأدباء ذلك اللون من التعبير فيقول : « وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء فى هذا الفن وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار ، وما أرى هذا إلا جائزاً على ما بيناه من مذاهبهم »[٢].

ولكن ابن قتيبة قد غالى بعض الشىء فى إجازة المبالغة ، وخلط بين القبيح منها والحسن[٣].

ويتناول — غير تلك الأمور الفنية فى التعبير — مسائل أخرى لغوية كثر فيها الخلط مثل الأضداد[٤] ، والزيادة ؛ كزيادة الضمائر ، وزيادة بعض الكلمات والحروف . ويخصص الأبواب الثلاثة الأخيرة للفظ بأقسامه الثلاثة : الاسم والفعل والحرف ، ويغلب عليها الطابع المدرسى النحوى ، والمباحث اللغوية الخالصة .

ويظهر الهدف الذى كان يرمى إليه مؤلف المشكل فى مواقف متعددة ؛ فهو يعارض الطاعنين من الجهمية والمشبهة وغيرهم بتأويل ما احتجوا به من الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ ، أو قوله تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ على التشبيه ؛ إذ يرى أن ليس هناك ساق على الحقيقة ، وليس هناك وجه كذلك ، بل إن التعبير فى الآية الأولى قصد به تصوير الشدة ، ولفظة وجه فى الثانية زائدة ، والقصد إلا هو .

---

(١) « تأويل مشكل القرآن » .

(٢) نفس المصدر .

(٣) « أثر القرآن » ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٤) مشكلة الأضداد اللغوية من البحوث التى شغلت العلماء حقبة من الزمان ، وقد أفرد لها بعضهم كتباً مثل ابن الأنبارى . راجع « أثر القرآن فى تطور النقد » .

كما أنه يقف أمام بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ وقوله ﴿ سخر الله منهم ﴾ فيرى أن نسبة أفعال الاستهزاء والسخرية إلى الله تعالى على ظاهر القول غير مستساغة وعلى ذلك فهى هنا من باب مخالفة ظاهر الكلام معناه[١] .

ذلك هو كتاب المشكل الذى أثار اهتمام العلماء من بعد ، فتناولوه بالشرح ، والتصحيح وقد استدرك عليه ابن الأنبارى ، وجمع ابن مطرف الكنانى الأندلسى بينه وبين كتاب الغريب فى « القرطين » .

(ب) كتاب « تأويل مختلف الحديث » :

تقوم فكرة الكتاب — كما هو ظاهر من عنوانه — على الردّ على الطاعنين فى الحديث والمحدثين من المتكلمين والمعتزلة . وقد تعرض فيه بصورة عامة لمعتقدات المتكلمين ، ومعتقدات أهل السنة ، وحاول أن يطعن فى أقوال أئمة المعتزلة أمثال عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، والنظام والجاحظ . ويرد هجومهم على أصحاب الحديث والمفسرين .

ولقد بيّنا مواطن الخلاف بين الفريقين ، وذكرنا أنه يدور بصفة خاصة حول الذات الإلهية ، والصفات ، ثم ما يتعلق بهما من أحاديث وتأويلات .

ويأخذ المحدثون بالأخبار والحديث ، فيفسرون بها آيات القرآن ، ولا يأخذون بالتأويل الاجتهادى كما يفعل المعتزلة وأهل النظر ، لذلك كان المفسرون الأوّلون ، لايخرجون عن نطاق اللغة ودلالات الألفاظ الظاهرية ، وأخذ المعتزلة عليهم ذلك لأنه يخرج بهم أحياناً إلى كثير من اللبس والخلط ، بل إلى التشبيه وإثبات صفات الله تعالى كصفات الخلق ، وهو منزّه عنها .

ولم يطق المحدثون هجمات المعتزلة وتجريحهم ، فهاجموهم بالمثل ، قال

---

(١) « تأويل مشكل القرآن » .

أبو يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكلام أفلس[١]، وقال شاعرهم :

ولا تصحبنَّ أخـا بدعة ولا تسمعنّ له الدهرَ قيلا
فإنّ مقالتهم كالظلا ل توشك أفياؤها أن تزولا
وقد أحكم الله آياته وكان الرسولُ عليهم دليلا
وأوضحَ للمسلمين السبيلَ فلا تتبعنَّ سواها سبيلا
أناس بهم ريبة فى الصدور ويخفون فى الجوف منها غليلا
إذا أحدثوا بدعة فى القُرآنِ تعادَوْا عليها فكانوا عدولا[٢]

وينبرى ابن قتيبة فيعرض لأقوالهم وحججهم ، ويردّ عليها، ويبدأ بالقول فى تفسير القرآن فيرد عليهم تأويلهم ، ويقول : « وفسّروا القرآن بأعجب تفسير ، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم » ومن عجائب تأويلهم عنده ، أنهم يستشهدون بالشعر المجهول قائله على القرآن[٣] . كما أنهم فى رأيه يخضعون ما جاء بالقرآن عن اليوم الآخر والملائكة وما شاكلها للقياس ، وهى أشياء لا تخضع عنده لمنطق العقل ، والحس « فإن معانى الكتاب والسنة وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد ، والعرض والجوهر ، والكيفية والأينيَّة ، ولو ردّوا المشكل منها إلى أهل العلم بها وضح لهم المنهج واتسع المخرج » ، فهذه أشياء يجب التسليم بها كما وردت بالأخبار والآثار الموثوق منها عن النبى وصحابته .

ويقف المتكلمون أمام الأخبار والأحاديث ورواتهما ، فلا يثقون بالرواية إذا عارضت الفكرة العقلية ، ولهذا فهم لا يأخذون بحجية الإجماع إذا لم يوافق المنطق .

ولم يدع ابن قتيبة مجالاً لمعارضيه، إذ هاجمهم فى حماسة بالغة قد تخرج به

---

(١) « تأويل مختلف الحديث » ص ٧٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٧ .
(٣) المصدر نفسه .

أحياناً عن الحد المعقول ، وقد قيل إنه متهم بالتشبيه ، يقول الذهبي في « ميزان الاعتدال » : « رأيت في مرآة الزمان أن الدارقطني قال : كان ابن قتيبة يميل إلى التشبيه » ، وغمز بأنه كان يرى رأى الكرّامية[١] ، وهم من غلاة المشبهة . وقد يكون مردّ هذه التهمة إلى بعض ما جاء في « تأويل مختلف الحديث » من موقفه إزاء تأويل بعض الآيات والأحاديث .

ولكن مهما يكن من أمر فإن إطلاق ذلك الاتهام ليس صحيحاً ، خاصة وأنه يغلب عليه الاعتدال ، حتى في هذا الكتاب ، ومن أمثلته حملته على الخالطين ، ورده لكثير من زيف الأحاديث التي تثبت التشبيه والتجسيم[٢] . ولعله اشتم رائحة الاتهام بعد تأليف الكتاب ، وأحس بغمز الغامزين فألف كتاباً آخر هو « الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة » يردّ به على هؤلاء ردّاً قاطعاً واضحاً لا يدع مجالا للشك أو للاتهام والغمز .

ومن أمثلة تفسيره لما جاء من الأحاديث قوله في الحديث القدسي : (من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة) قوله : « ونحن نقول : إن هذا تمثيل وتشبيه : إنما أراد من أتاني مسرعاً بالطاعة ، أتيته بالثواب أسرع من إتيانه ، فكنى عن ذلك بالمشي والهرولة » .

وكذلك تأويله في حديث : « ينزل الله إلى السماء الدنيا ... إلخ »[٣] بأن النزول إنما يكون بمعنيين أحدهما الانتقال من مكان إلى مكان كنزولك من الجبل إلى الحضيض ، ومن السطح إلى الدار ، وهذا هو المعنى الظاهر . عدل عنه إلى المعنى الآخر ، وهو إقبالك على الشيء بالإرادة والنية »[٤] .

---

(١) الكرامية : هم الذين تبعوا محمد بن كرام ، وهم من غلاة المشبهة .

(٢) « تأويل مختلف الحديث » ص ٧ .

(٣) « تأويل مختلف الحديث » .

(٤) « تأويل مختلف الحديث » .

ويخرج من هذا كله إلى تقرير ما يعتقده هو وأصحابه فى هذا كله ، والأصل الذى يبنى عليه حجاجه فيقول : « ونحن نقول كما قالوا إن الله تعالى وله الحمد يجلّ عن أن تكون له صورة أو مثال ، غير أن الناس ربما ألفوا الشيء وأنسوا به فسكنوا عنده وأنكروا مثله » . . . ويقول : « والذى عندى – والله تعالى أعلم – أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين ، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها فى القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت فى القرآن، ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول فى شيء منه بكيفية»[١] .

(ج) « كتاب الأشربة » :

إنه من كتبه التى مزج فيها بين الفقه والأدب[٢] ، قال محمد كرد على فى مقدمته : « وكانت مسألة الأشربة قد شغلت أمناء الشرع والفقه فى أيامه وفى الأيام السالفة ، والمشرعون بين محلل ومحرم للأنبذة كل يفتى بمبلغ علمه وما وصل إليه رأيه من نصوص الكتاب والسنة ، فكتب ابن قتيبة رأيه مستنداً إلى أقوال الأئمة ذاكراً ماتعاور هذه المسألة من المرادات فجاءت فتواه مستوفاة، وحل المسألة المتنازع عليها بإخلاص ، مما لم يكن يسبق للفقهاء بلوغ مثله ، ومعظم أرباب الفقه لم يحكموا الأدب كما أحكمه ابن قتيبة » .

ويبدأ الكتاب بمقدمة يذكر فيها ما أحل الله من طيبات الطعام والشراب ، وما حرم من خبائثهما فقال: « فحرم علينا بالكتاب الميتة والدم ولحم الخنزير، وبالسنة سباع الوحش والطير ، وعوضنا من ذلك بهيمة الأنعام الثمانية الأزواج، وسائر الوحش وصنوف الطير ؛ وحرم علينا بالكتاب الميسر ، وبالسنة القمار ، وعوضنا من ذلك اللهو بالرهان والنضال ، وحرم علينا الربا وأحل البيع ، وحرم السفاح وأحلّ النكاح ، وحرم بالسنة الديباج والحرير ، وعوضنا الخز

(١) « تأويل مختلف الحديث » .

(٢) مقدمة « الأشربة » طبع المجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٤٤ م بتحقيق محمد كرد على .

والوشى والعقم والرقم ، وحرم بالكتاب الخمر وبالسنة المسكر ، وعوضنا منهما صنوف الشراب من اللبن والعسل وحلال النبيذ » .

ثم يتكلم عن اختلافهم فى النبيذ أحلال هو أم حرام ؟ ، ويذكر أقوالاً لبعض العلماء فيه . ويرجع بالمشكلة إلى أصلها وهو تحريم الخمر ، وما هى الدواعى التى حرمت من أجلها ، ثم أنواع المحرم منها ، فدفعه ذلك كله إلى البحث فى مصادرها ، وكيفية صنعها ، والأنواع التى تصنع منها ، ومدى الآثار التى يتركها كل فى الجسم والعقل . حتى ينتهى إلى تقرير الموقف فى ضوء ما يتبين له من حقيقة .

وروحه هنا هى التى تبيناها فى كتابى «المشكل» و « تأويل مختلف الحديث » ، فهو يردّ على المتكلمين الذين يدّعون بأن القرآن لم يحرم الخمر ويحتجون على ذلك بمختلف الحجج والآراء .

قال : « وقد أجمع الناس على تحريم الخمر بكتاب الله إلا قوماً من مجّان أصحاب الكلام وفسّاقهم لا يعبأ الله بهم ، فإنهم قالوا ليست الخمر محرمة وإنما نهى الله عن شربها تأديباً ، لما أنه أمر فى الكتاب بأشياء ونهى فيه عن أشياء على جهة التأديب ، وليس منها فرض كقوله فى العبيد والإماء : ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ ، وقوله فى النساء : ﴿ فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ﴾ . وقالوا لو أراد تحريم الخمر لقال : «حرمت عليكم الخمر» كما قال : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ » . ويرد عليهم بأن هؤلاء لا يعبأ بكلامهم ، لأنهم لا يعترفون بالمقاييس التى تعارف الناس عليها (من أهل السنة) ومنها حجة الإجماع ، وقد أجمع الناس على أن القرآن حرم الخمر وإن اختلف بعضهم فى ماهيتها .

وذكر أقوال من لا يحرمون من أنواع الخمر النبيذ ، والنبيذ هو ماء الزبيب وماء التمر من قبل أن يغليا ، فإذا اشتدّ ذلك وصعب فهو خمر[1] . « وإنما سمى نبيذاً لأنه كان يتخذ وينبذ أى يترك » .

---

(١) « الأشربة » ص ٢٠ .

وذكر حجج الذين يحرمون الخمر بأنواعها ، والقائلين بأن « كل شيء أسكر كثيره كائناً ما كان فقليله كائناً ما كان ولو كان مثقال حبة حرام »[١]. وهؤلاء يرون أن الأصل فى تحريم الخمر الإسكار ، وما يجرى على شاربها من جرائر ، ولأنها على ذلك رجس من عمل الشيطان .

ويستطرد مع هؤلاء ذاكراً ما يؤيدهم من أخبار ، وآراء للصحابة ، وغير الصحابة ممن كانوا قبل الإسلام وامتنعوا عنها لأضرارها ؛ ومن ذلك ما رواه عن العباس ابن مرداس إذ قيل له فى جاهليته : لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد فى جرأتك ! فقال : ما أنا بآخذ جهلى بيدى فأدخله فى جوفى ، وأصبح سيد قومى وأمسى سفيههم .

ويورد فى ذلك شعراً ومقالات بليغة تضفى جوًّا أدبيًّا على الموضوع ، ويخرج ما يؤيد الرأى من ألفاظ اللغة ، كأن يفسر معنى « النديم » بقوله : « قالوا وإنما قيل لمشارب الرجل نديمه من الندامة ، لأن معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه ، وفعل ما يندم عليه ، فقيل لمن شاربه نادمه لأنه فعل مثل فعله ، والمفاعلة تكون من اثنين كما تقول : ضاربه وشاتمه ، ثم اشتق من ذلك نديم كما يقال جالسه ، وهو جليس ، وقاعده فهو قعيد » .

وذكر ما يتوسط الرأيين ، وهو المحل لما دون السكر ، « قال المطلقون إنما حرمت الخمر التى أجمع الناس على صفتها وكيفيتها بعينها ، وما سوى ذلك كائناً ما كان فهو نبيذ ما دون السكر منه حلال ، فسوّوا بين النقيع والطبيخ ، والحديث والعتيق ، والتمر والزبيب » .

ويروى بعض ما يؤيده من الأخبار والأحاديث . وذكر احتجاجهم بابن مسعود فإنه قال : « شهدت التحريم وشهدت التحليل وغبتم » . وبأنه كان يشرب الصلب[٢] من النبيذ الجرّ حتى كثرت الروايات عنه وشهرت وأذيعت فاتبعه

---

(١) « الأشربة » ص ٢٢ .

(٢) وهو منقوع التمر .

عليه التابعون الكوفيون وجعلوه أعظم حججهم . قال بعض الشعراء :

من ذا يحرّم ماء المُزْن خالطَه ... فى جوف خابيةٍ ماءُ العناقيد[١]

إنى لأكره تشديد الرُّواة لنا ... فيها ويعجبنى قولُ ابن مسعود

وإنما عنى الطلا وهو ما طبخ من عصير العنب حتّى يذهب ثلثاه ، ويرد عليه الماء ، وكان كثير من الكوفيين يشربونه »[٢] .

ويذكر « أن النبيذ محدث إسلامى لم تكن العرب فى الجاهلية تعرفه ، وكان شربة النبيذ من السلف لا يبلغون السكر . . وإنما كانوا ينالون منه اليسير على الغداء والعشاء ، ثم خلف من بعدهم خلف يشربون الخمر ولم يتهيبوا من المسكر »[٣] .

ثم يتكلم بعد ذلك كلاماً عامًّا فى الخمر ، ويبدأ بتفسير قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ويذكر معنى الإثم ، ثم ما كان فيها من النفع فى الجاهلية من حيث التجارة فيها ، وما تضفيه على الجسم فى قولهم من النشاط والقوة وزيادة الدم ، ثم ما مؤثراتها النفسية ، كأن تسخى البخيل ، وتشجع الجبان ، وتبعث الحصر العيي على الكلام .

وينهى الكلام بين هذه الآراء جميعاً فيقول : « هذا آخر قول المطلقين وحججهم قد قابلنا به قول الحاظرين وحججهم ، واعترض بين الفريقين قوم ، وفرقوا بين حلال النبيذ وحرامه بالنار ، وقالوا ما طبخ فهو حلال ، وما كان من النقيع وما أشبهه مما لم تمسه النار فهو حرام ، وبالسنة مشبه للخمر . وقال آخرون بمثل قولهم وحرموا الخليطين وإن استخرج شرابهما بالنار . . . وتردد آخرون بين هذه الأقاويل ، وأجمعوا جميعاً على أن تركه خير من شربه ،

---

(١) الخابية والخابئة : الجرة الضخمة .

(٢) « الأشربة » ٤٩ .

(٣) « الأشربة » ٥٩ .

والتنزه عنه أسلم فى الدنيا والدين »[١] .

وهكذا فابن قتيبة يرى أن التحريم منصب على المسكر من الخمر بأنواعها، وإنما يحسن الاحتياط بتجنب القليل مما كثيره مسكر ، أو ما يخشى من إسكاره من منقوع ومخلوط ومطبوخ وإن اختلفت الأسماء اتقاء للشبهات « وخير لك إن كنت تخاف أن يدعوك ما رخص لك فيه إلى ما حرم عليك أن تدعه كله فإن حاتم الطائى كان يقول : إذا كان الشىء يكفيكه الترك فاتركه . وقالوا : دع عنك ما يريبك إلى ما لا يريبك »[٢] .

(د) كتاب « الميسر والقداح » :

أخو كتاب « الأشربة » وشبيهه فى موضوعه وغرضه ، تناول مسألة أخرى مما حرم الله ، وهى الميسر ، ونص عليه تعالى فى قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية . ولكن الميسر يختلف عن الخمر بأنه أمر انقطع بمجىء الإسلام . وأما الخمر فقد رأينا اختلاف الناس حولها ، وإنما دفع المؤلف إلى تأليف كتابه هذا أنه طلب إليه ذلك . يقول فى المقدمة :

« أما بعد فإنك كتبت تعلمنى تعلق قلبك بالميسر وكيفيته ، والقداح وحظوظها ، والمياسرين وأحوالهم ، ومعرفة ما فى الميسر من النفع الذى ذكره الله فى القرآن » . وهو أمر لم يكتب فيه أحد من العلماء وقتئذ مقالا شافياً ، لأنه أمر من أمور الجاهلية قطعه الله بالإسلام . ولهذا فإن مصادره نادرة شحيحة . وليس فيه إلا النبذ اليسير ، مما قد يجىء فى الشعر .

فالموضوع عنده ليس ببيّن، ولذلك فهو يعمد فيه إلى الاجتهاد ، ويبدأ بتفسير لفظ الميسر فى اللغة ، فهو الجزور[٣] نفسه ، وسمى ميسراً لأنه يجزّأ

---

(١) « الأشربة » ٨٨ .

(٢) « الأشربة » ١١٢ .

(٣) الجزور : ما يجزر من النوق والغنم . ج : جزر .

أجزاء . والمتقامرون أو اللاعبون بالميسر على الجزور « ياسرون » . ويستعمل هؤلاء القداح[1] فى ضربهم . وهذا هو المقصود فى الآية والذى حرمه الله تعالى . أما مايطلق عليه هذا الاسم على سبيل التشبيه وهو النرد فليس هو المراد بالآية . وإن كان من ضرب القمار ، كما لا يقال للشطرنج ميسر ولا من الميسر ، لأنه مخالف فى طريقته ، ولا يعدّ قماراً[2] بل هو « رفق واحتيال » .

ويحتج لذلك بآراء بعض العلماء ، ومنهم ابن سيرين ، والأصمعى . وهو عنده لعب مما يصرف الناس ويشغلهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهو مكروه يبلغ درجة التحريم .

والأزلام القداح أيضاً ، والاستقسام بها محرم. « كانوا إذا أرادوا أن يقتسموا شيئاً مختلفاً بين قوم تساهموا عليه فما خرج لكل امرئ جعلوه حظّاً له ، فقيل الاستقسام أى طلب القسم وهو النصيب » ، وكانوا إذا أرادوا الخروج إلى وجه ضربوا الأقداح فإن خرج القدح الآمر نفذ الرجل لوجهه راجياً للسلامة ، وإذا خرج القدح الناهى أمسك عن الخروج خائفاً النكبة والجائحة »[3].

ويزيد فى التعريف بتلك الأنواع ، فيذكر ما جاء فى القرآن عما فيها من النفع ، ثم أسماء القداح التى يضربون بها أو يستقسمون عليها ، وعلاماتها ، وصفاتها وهيئاتها . وأوقات التقامر ، وذكر الأيسار وعددهم ، وأجزاء الجزور وأسمائها ، ثم طريقة اللعب والرهان وكيفية الفوز والغرم ، وتوزيع الأنصبة . هذا كله فى صورة أدبية طريفة يسوق الأخبار ويستشهد بالأشعار الجاهلية ، مع فوائد لغوية واجتماعية شتى عن حياة العرب فى الجاهلية وعقائدهم ، وعاداتهم ، من ذلك ما ذكره من أنهم يضربون على الميسر بالقداح « فى

---

(١) القداح : جمع قدح وهو سهم الميسر .

(٢) من أجود القصائد فى ذم القمار قصيدة للشيخ نجيب الحداد مطلعها :

لكل نقيصة فى الناس عار ... وشر معايب المرء القمار

اطلبها فى الكتاب رقم ٣ من مجموعة نوابغ الفكر العربى وعنوانه : « الشيخ نجيب الحداد » بقلم عادل الغضبان .

(٣) « الميسر والقداح » ط محب الدين الخطيب ص ٤٠ .

الشتاء عند جدب البلاد وتعذر الأقوات ، وكلب الزمان ، لينعشوا بذلك الفقير والضرير ، ولا ييسرون فى الصيف . يدلك على ذلك قول المرقش :

إذا يسروا لم يورث اليسرُ بينهم فواحشَ يُنعى ذكرها بالمصايفِ

يقول : إذا يسروا لم يسفهوا ولم يفحشوا فينعى ذلك عليهم فى الصيف ، وذلك أنهم يخصبون؛ فيتذاكرون ما كان من الناس فى الشتاء ، فيعيّر كل امرئ بسوء فعله »[1].

فالكتاب إذاً ليس عرضاً فقهيًّا للميسر وما حرم منه وما أحل فحسب ، بل هو محاولة أدبية وعرض لغوى تاريخى اجتماعى للموضوع ، وإن كان يظهر فيه موقفه الدينى ، إلا أنه ليس صريحاً صراحته فى « الأشربة » ، وذلك لما بينا فى مبدأ الكلام عنه من أنه يحث مسألة قد زالت بمجىء الإسلام .

٢ ــ العريف[2]

وضع ابن قتيبة كثيراً من كتب المعارف العامة : وهى تمتاز بذلك الاختصار والإلمام بضروب المعرفة الإنسانية ، ولعل أصدق ما يمثلها كتاباه « المعارف » ، و « عيون الأخبار » ، وقد اتهمه بعض العلماء بالتقصير فى تلك الكتب ، فقال صاحب « مراتب النحويين »[3] : « إن ابن قتيبة كان يشرع فى أشياء ولا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف أمثال هذه المؤلفات »[4] وذكر المسعودى أنه نقل عن كتب أبى حنيفة الدينورى[5] ونسب ما نقل إلى نفسه . وأغلب الظن أنه يقصد كتاب « المعارف » وإليك تعريفاً وجيزاً بالكتابين :

---

(١) « الميسر والقداح » ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) نقصد بالعريف ما ترجمته بالفرنسية : érudit وهو الرجل الملم إلماماً واسعاً بالتاريخ والمعارف الإنسانية .

(٣) هو أبو الطيب الحلبى المتوفى سنة ٣٥١ هـ .

(٤) « مراتب النحويين » للطيبى — ترجمة ابن قتيبة .

(٥) « المسعودى » ٢/٤٤٢ .

(ا) كتاب « المعارف » :

وهو كتاب يجمع فيه المؤلف من المعارف التاريخية ما يراه ضرورة لكل كاتب ومتأدب . يقول : « هذا كتاب جمعت فيه من المعارف ما يحق على من أنعم عليه بشرف المنزلة ، وأخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة ، وفضل بالعلم والبيان على العامة أن يأخذ نفسه بتعلمه ، ويروضها على تحفظه إذ كان لا يستغنى عنه فى مجالس الملوك إن جالسهم ، ومحافل الأشراف إن عاشرهم ، وحلق أهل العلم إن ذاكرهم » .

ويتبع فيه نظاماً خاصًّا . يقول : « وكتابى هذا يشتمل على فنون كثيرة من المعارف أولها مبتدأ الخلق وقصص الأنبياء وأزمانهم ، وحلاهم ، وأعمارهم ، وأعقابهم ، وافتراق ذراريهم ، ونزولهم بمشارق الأرض ومغاربها ؛ وأسياف البحار ، والفلوات والرمال إلى أن بلغت زمن المسيح والفترة بعده ووصلت ذلك بذكر أنساب العرب مختصراً ذلك ، ومقتصراً على العشائر ومشهور البطون ، ثم أتبعته أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسبه وذكر عمومته وعماته وجداته لأبيه وأمه وأظآره ، وأزواجه ، وأولاده ، ومواليه ، وأحواله فى مولده ومبعثه ، ومغازيه إلى أن قبض صلى الله عليه وسلم ؛ وأخبار العترة من المهاجرين رحمهم الله تعالى ثم الصحابة المشهورين ، ثم الخلفاء من لدن معاوية بن أبى سفيان إلى أحمد بن محمد بن المعتصم المستعين بالله ، والمشهور من صحابة السلطان والخارجين عليهم من الخوارج ، ثم التابعين ، ومن بعدهم من حملة الحديث وأصحاب الرأى ، ومن عرف منهم بالترفض والتشيع والإرجاء والقدر ، وأصحاب القراءات من أهل الحجاز ومكة والعراق والشام ، والنسابين وأصحاب الأخبار ، ورواة الشعر والغريب ، وأصحاب النحو والمعلمين ، والمهاجرين من الصحابة والتابعين وأول من أحدث شيئاً باقياً على مرور الأيام ، وذكرت المساجد المشهورة كالكعبة وبيت المقدس ومسجد المدينة ، ومسجد البصرة ، ومسجد الكوفة ، ومسجد دمشق ، ومتى ابتنيت ، وعلى يد من أسست ؛ ودللت على جزيرة العرب وحدود

السواد ، والجزيرة بين دجلة والفرات ، وحدود نجد والحجاز وتهامة ، وأخبرت عن الفتوح ، وما كان منها عنوة ، وما كان عن صلح ، وعمن جمع له العراقان ، وعن فرق ما بين المهاجرين الأولين والمهاجرين الآخرين ، وعن المخضرمين ، وعن سبب إضعاف الصدقة على نصارى بنى تغلب ، وعن أديان العرب فى الجاهلية ، وعن صناعات الأشراف فى الجاهلية ، وعن أهل العاهات الذين كثرت فيهم ، وعن البرص والعرج والصم والجدع والجذمى والحول والزرق والفقم والكوابح والصلع والبخر والعور والمكافيف ، وعن أشياء تتابعت فى نسق ليس لها مثل ، وعن المنسوبين إلى غير عشائرهم وآبائهم ، وعن المسمين بكناهم ، وعن ذكر الطواعين وأوقاتها ، وعن الأيام المشهورة ، مثل يوم ذى قار والفجارين وحلف الفضول ، وحلف المطيبين ، وحرب بكر وتغلب ، وحرب داحس والغبراء ، وعن قصص قوم جرى المثل بأسمائهم مثل قوس حاجب ، وعى باقل ، وقرطا مارية . . . إلخ » .

ثم يقول : « وكان غرضى فى جميع ما اقتصصت الإيجاز والتخفيف والقصد المشهور من الأنباء دون المغمور ، ولما يجرى له سبب على ألسنة الناس دون ما لم يجر له سبب » .

وهذا التعريف من المؤلف لكتابه موضح جامع لا نرى مزيداً عليه .

(ب) كتاب « عيون الأخبار » :

جاء تأليفه بعد كتاب « أدب الكاتب » كما توحى عبارته فى أول المقدمة[١] وهو يكمله فى الغاية والمنهج ، إذ القصد من ورائه تمام آلة كتّاب الدولة بوضع ضروب المعرفة فى صورة ميسرة بين أيديهم . يقول وهو يعنى الكاتب : « ... ولما تقلدت له القيام ببعض آلته دعتنى الهمة إلى كفايته ، وخشيت إن وكلته فيما بقى إلى نفسه وعولت له على اختياره أن تستمر مريرته على التهاون ،

---

(١) طبع دار الكتب ج ١ ص (ط) .

ويستوطئ مركبه من العجز » .

ثم يعرض لموضوع الكتاب فيقول : « فإن هذا الكتاب وإن لم يكن فى القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام ، دالٌّ على معالى الأمور ، مرشد لكريم الأخلاق زاجر عن الدناءة ناهٍ عن القبيح باعث على صواب التدبير وحسن التقدير ورفق السياسة وعمارة الأرض ، وليس الطريق إلى الله واحداً ، ولا كل الخير مجتمعاً فى تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام ، بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة ، وصلاح الدين بصلاح الزمان ، وصلاح الزمان بصلاح السلطان ، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير » .

« وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدباً ، وللملوك مستراحاً من كدّ الجد والتعب ، وصنفتها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها . وهى لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء » .

فالكتاب إذاً ليس فى شيء من أمور الدين ، وهى المقدمة عند الناس ، والتى ينبغى أن يوليها العلماء العناية فى التأليف ، ولكنه مع هذا ليس مما يعيبه أنه لا يتكلم عن الحلال والحرام وعن صلاح الدين عن طريق مباشر ، فإن صلاح الدين فى صلاح أمور الناس ، والطريق إليه ما رسمه وبيّنه .

فالتبصر بأحوال الدنيا ، والاطلاع على مآثر السلف ، والإلمام بخبايا الخلق ، وإدراك أسرار الكون وأمور التدبير والسياسة ؛ كل هذا مما يعين على صلاح الأمور ، وتفهم الطريق الصحيح للحياة الكريمة الفاضلة ، ومن ثم كان صلاح الدنيا ، ومنها كان صلاح الدين ، فالدين قانون السماء لتدبير حياة الناس ، ولهدايتهم لحسن المعاملة والسلوك ، وحسن الصلة بالله عن طريق حسن الصلة بالناس .

فالمعرفة ، والتأدب ، وحسن السيرة ، وصلاح النفس ، كلها من أغراض

الكتاب . أما منهجه وطريقه إلى ذلك فقد رسمه فى أبوابه المختلفة ؛ وأما مصادره ، فيكلمنا عن بعضها من أنها قرائح العلماء والحكماء ، وما التقطه من الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن فوقه فى السن والمعرفة ، وعن جلسائه وإخوانه ، وعن كتب الأعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب فى فصول من كتبهم . وعمن هو دونه غير مستنكف أن يأخذ ممن هو أحدث سناً ، أو علماً « فإن العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه »[1] .

ويقسم الكتاب إلى عشرة كتب :

الأول – كتاب السلطان ، يتحدث فيه عن أخبار الملوك والدول ، وعن تدبيرها على طريقته ، وطريقة معاصريه فى سوق الخبر ، وما يدور فيه من طرائف ونوادر وآراء للمتقدمين والمتأخرين من العرب وغيرهم مع الاستشهاد بآيات القرآن ، وبالشعر وأقوال الحكماء والبلغاء . وعلى هذا المنوال يجرى فى سائر الكتب العشرة الأخرى : كتاب « الحرب » ، و « السؤدد » ، و « الطبائع والأخلاق » و « العلم » ، و « الزهد » ، و « الإخوان » ، و « الحوائج » ، و « الطعام » و « النساء » .

وقد انتهج فى ترتيبه نظاماً خاصاً ، فهو يسوق الباب ثم يتبعه بما هو قريب إليه مناسب له : فالسلطان ، من لوازمه الحرب وما تتطلبه من إعداد العدد وتجنيد الجند ، وكتاب السؤدد جامع لفصول تهم السلطة والحاكم ، يتكلم فيه عن الخلال النفسية الكاملة ، والطبائع السامية ، كالحلم والعقل والعز والهيبة ثم يعرض للأصول العامة فى العيش كالتجارة والمعاملة ، ويليه ما يتممه وهو كتاب « الطبائع » فى صورها المختلفة الحسنة والقبيحة عند بنى آدم والحيوان والنبات .

---

(١) مقدمة « عيون الأخبار » (س) .

(ح) المسائل والأجوبة[1] :

رسالة صغيرة تتضمن بعض المعارف العامة الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية على هيئة سؤال وجواب ، كما اتبع فى بعض كتب العلماء . ومثاله ، (ص ٨) :

« سألتَ هل كانت العرب قبل نزول القرآن، وقبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم تستوى فى المعرفة من جميع اللغة بجميع الأسماء التى فى القرآن ، وما تحتها من المعانى ؟

والعرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ، بل لبعضها الفضل فى ذلك على البعض ، والدليل عليه قول الله عز وجل: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ﴾ . ونحن نذهب إلى أن الراسخين فى العلم يعلمونه على ما بينا؛ فأعلمنا عز وجل أن من القرآن ما لا يعلمه من العرب إلا من رسخ فى العلم ، ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ونحن العرب حقًّا ، فقال : إن ربى علمنى فتعلمت . وكذلك مذهبها فى الشعر ، ليس كلها يقوله ، وإنما يقوله فى القبيلة الواحد والاثنان ، وكان الغلام إذا بلغ فقال من الشعر شيئًا هُنِّئَ به قومُه ، واستبشرت به عشيرتُه ، ورشَّحوهُ للمنافحة عنهم والذبِّ عن أعراضهم . قال الأعشى :

أدافعُ عن أعراضِكم وأعيركُمْ لسانًا كمقراضِ الخفاجى مُلْحِبَا

وقال جرير لقومه :

ألم أكُ نارًا يصطليها عدوُّكُمْ وحِرْزًا لما ألجأتُمُ من ورائيا »

---

(١) طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .

٣ ـ الأديب اللغوى

ولابن قتيبة أيضاً كتب فى اللغة والأدب تدل على طول باعه فى هذا المضمار فمن تلك الكتب :

كتاب « أدب الكاتب » :

اشتهر هذا الكتاب بين العلماء والأدباء ، وتناولوه بالتعليق والشرح ، وسمّاه الأندلسيون والمغاربة « أدب الكتّاب » . وممن شرحه الجواليقى ، وشرحه البطليوسى الأندلسى وسماه « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » كما شرح مقدمته الزجاجى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ[١] .

يتناول موضوع الكتاب ما يمكن أن يعين ناشئة الكتّاب من الآلات ، وخاصة ما يتعلق منها باللغة وألفاظها وتراكيبها . يقول فى مقدمته : « وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ومن الكتابة إلا بالرسم ، ولم يتقدم من الأدوات إلا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئاً من الإعراب فعرف الحرف والمصدر ، والحال والظرف ، وشيئاً من التعاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو ، والألف عن الياء وأشباه ذلك » .

وذكر أن الكتاب قد وضع ليعين الكتّاب على الكتابة السليمة إلى جانب الإلمام بالمعلومات الصحيحة والمعرفة الواسعة بما يجرى حولهم من أمور الدولة ومهامها ، واعتبر هذا كله أدوات هامة ضرورية لابدّ من أن يتزود بها كل من تصدّى للكتابة . وينبغى أن يساند تلك الأدوات جميعاً طبع فيّاض مواتٍ لتكتمل العدة وتستكمل المقدرة : « ومدار الأمر على القطب وهو العقل ، وجودة القريحة ، فإن القليل معها بإذن الله كاف ، والكثير مع غيرها مقصر . ونحن نستحب لمن قبل عنا ، وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه » . ثم ينصح للكتّاب بجملة من النصائح والتوجيهات التى عليهم أن يأخذوا بها ، وذلك كأن يتحلوا بكريم الخلق ، حتى يليقوا بالمركز الذى يشغلونه ، كما يدعوهم إلى

---

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣٩ أدب ش .

إتقان الصنعة بالتدقيق فى اختيار الألفاظ مع مراعاة سهولة الأسلوب وصحة العبارة بحيث يخلو من التقعر واللحن ، ذلك كله إلى مناسبة الكلام للمقام .

ويعرض فى الكتاب لجملة من الأخطاء اللغوية الشائعة ، فيبين ما تستعمله العامة منها ويشير إلى الصحيح الوارد فى كلام العرب ، ومثاله قوله فى كلمة « الربيع » .

« ومن ذلك " الربيع " يذهب الناس إلى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ، ويأتى فيه الورد والنَّوْر[1] ، ولا يعرفون الربيع غيره ، والعرب تختلف فى ذلك ، فنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار ، وهو الخريف ، وفصل الشتاء بعده ، ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الفصل الذى تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده ، وهو الوقت الذى تدعوه العامة الصيف . ومن العرب من يسمّى الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيعَ الأول وليس الفصل الذى يتلو الشتاء وتأتى فيه الكمأة والنور ، والربيع الثانى ، وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع » .

ويعمد إلى معارف لغوية عامة ، فيتكلم مثلا عن باب « ما جاء مثنى فى مستعمل الكلام . يقال : أهلك الرجل الأحمران الخمر واللحم ، أهلك النساء الأصفران الذهب والزعفران والملوان الليل والنهار . . إلخ » .

ويعقد أبواباً من هذا القبيل مثل « باب ما يستعمل من الدعاء » و « باب أصول أسماء الناس المسمين بأسماء النبات » ، و « المسمون بأسماء الطير » ويتكلم عن أسماء النجوم والأزمان والرياح ، فالفلك مدار النجوم ، والمجرة النجوم سميت كذلك لأنها كأثر المجر . . إلخ .

ومنها الخيل ومعرفة ما يستحب فى خلقها ، وما يستقبح ، فيورد أمثلة للمحاسن والعيوب فى شياتها وألوانها ، ويتعرض لخلق الإنسان ، وما يتعلق به وبحياته ، وطعامه وشرابه وما يستعمله من ثياب وسلاح . . إلخ .

---

(١) النور : الزهر أو الأبيض منه . الواحدة نورة ج أنوار .

ويخرج من ذلك إلى مجموعة أخرى من المعارف اللغوية التى تدور على الألفاظ نفسها بصفة عامة مما يدخل فى علم النحو والصرف والإملاء .

ويغلب على اتجاه ابن قتيبة فى هذا الكتاب الخلط بين مذاهب الكوفيين والبصريين ، فهو يحكم القياس أحياناً ، ويرتضيه ، وهو لا يأخذ به مرة أخرى مما دعا كثيرين ممن جاءوا بعده إلى الاعتراض عليه ومؤاخذته ، واتهامه بالخلط والجهل أو قلة المعرفة باللغة ، كما أن بعضهم ذكر فضله فى التوفيق بين المذهبين ومحاولة تدعيم المذهب الوسط وهو مذهب البغداديين .

والحقيقة أن ابن قتيبة حاول أن يجتهد ، ويستقل برأيه ، ولا يتبع هذا الرأى أو ذاك دون تدبر أو عن هوى لا تؤيده قرينة . ومحاولاته من هذا القبيل من مظاهر شخصيته العلمية فى كتبه جميعاً ، وقد رأينا أمثلة لها فى « مشكل القرآن » وفى « الأشربة » وسنرى أمثلة أخرى فى « الشعر والشعراء » .

٤ ــ الناقد

تصدّى ابن قتيبة فيما تصدّى له لفن النقد وأودع دستوره فى النقد كتابه « الشعر والشعراء » ثم أردفه بكتابه « معانى الشعر » وإليك بعض البيان عن كتاب « الشعر والشعراء » :

ا ــ كتاب « الشعر والشعراء »

وهو من أهم كتبه بصفة عامة ، ومن أوائل كتب النقد التى تمتاز بالرأى الجرىء والمنهج الواضح . وأهم ما فى الكتاب مقدمته فقد وضع فيها أصول النقد المعروفة فى عصره ، جمع قدراً لا بأس به من مقاييس النقاد وأحكامهم ، مع اجتهاد ومسايرة لظروف الشعر الجديد واتجاهاته وأساليبه ، ومواجهة جريئة لمقاييس اللغويين والمتزمتين الذين درجوا على تحكيم أصول الشعر القديم ، ومعاييره الموروثة .

ويبدأ ابن قتيبة فيعرض لمنهج الكتاب ، ذاكراً أنه كتاب ألفه فى الشعر والشعراء، أخبر فيه عن أزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم وأسماء آبائهم ، وعما يستحسن من أخبارهم ، وما يستجاد من شعرهم ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون ، فأخذه عنهم المتأخرون ، كما يتعرض لأقسام الشعر عامة وطبقاته ، وللوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها .

فالموضوع الذى يدور عليه الكتاب ذو شقين ، الأول منهما عرض تاريخى ذكر فيه أسماء الشعراء ، وتراجمهم وأخبارهم وقبائلهم وما إلى ذلك . وعرض للناحية الأدبية أو النقدية فى الشق الثانى ، فذكر ما يستجاد من شعرهم ، وما قاله العلماء فيه ، ثم طبقات ذلك الشعر والوجوه التى يختار لأجلها ويقدم .

ولم يعرض الكتاب بطبيعة الحال لشعراء العرب جميعاً فى الجاهلية والإسلام إلى عصر المؤلف . بل اختار ابن قتيبة ، وكان اختياره مبنيًّا على الشهرة والتقدم ، وعلى أشياء أخرى ذكرها فى قوله :

« وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو ، وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمّا من خفى اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة »[1] .

ومقدمة الكتاب كما قلنا أهم ما فيه ، فقد بسط فيها آراءه ، ووضع مقاييسه العامة ، والأصول التى بنى عليها آراءه فى الشعر والشعراء . ويمكن إجمالها فيما يلى :

(١) مقدمة « الشعر والشعراء » ص ٣ .

١ – الشاعر :

يعتبر شاعراً كل من غلب عليه الشعر ، ولم يكن الشعر بالنسبة إليه فى المرتبة الثانية أو من قال شعراً يسيراً « لأنه قل أحدٌ له أدنى مسكة من أدب ، وله أدنى حظ من طبع إلا وقد قال من الشعر شيئاً » ولا يوضع أحد من هؤلاء فى طبقات الشعراء .

٢ – الشعر :

هو الجيد الذى يتفق ومفهومات العصر ، ولا يغرب فى اللفظ أو المعانى ، بل يشتق ألفاظه وصوره من الحياة التى يعيش فيها ، فلا يدخل إذاً عنده عامل الزمن ، ولا عبرة للمتقدم فلا ينظر له نظرة إعظام وإجلال لمجرد تقدم زمانه ، ولا ينظر بعين الاحتقار للمتأخر لمجرد تأخر زمانه ، بل المعول على القيمة الفنية فى الشعر نفسه مخالفاً فى ذلك آراء كثير من العلماء المعاصرين له . يقول :

« فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، أو أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره »[1] . ويذكر أمثلة لهؤلاء العلماء الأصمعى ، ويشير إلى معارضة الجاحظ وإزرائه لهم ، وتسفيهه آراءهم فى الشعر والشعراء .

٣ – أسلوب الشعر :

ينظر للشعر من ناحية الأسلوب والصياغة فيقسمه من حيث ألفاظه ومعانيه إلى أربعة أقسام :

---

(١) « الشعر والشعراء » ١ / ٧ .

ما حسن لفظه وجاد معناه ، وما حسن لفظه وحلا فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، وما جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وما تأخر معناه ولفظه جميعاً . والضربان الأولان — عنده — يكثر ورودهما عند الشعراء المجيدين ، أما الثالث فيقل ، والرابع من صنعة المتكلفين ، وهى ظاهرة واضحة فى شعر العلماء لأنه لم يصدر عن طبيعة وموهبة .

٤ — بناء القصيدة :

تبدأ القصيدة العربية القديمة بذكر الديار والدمن والآثار ، والنسيب وذكر الوجد وألم الفراق ، وذلك لكى يستدعى به الأسماع ، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، ولما جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء . ثم يذكر الرحلة ومشاقها من سرى الليل وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير ، ثم المديح وطلب الجائزة . والشاعر المجيد « من سلك هذه الأساليب وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد »[١] وليس لمتأخر الشعراء عنده أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام[٢] .

٥ — المتكلف والمطبوع :

والمتكلف عنده هو الذى يعمد إلى شعره فيثقفه ، ومن هؤلاء المدرسة المعروفة فى الشعر الجاهلى بالصنعة والتثقيف وعلى رأسها زهير بن أبى سلمى والحطيئة ، وقد كان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولى المنقح المحكك ، وأما المطبوع فهو الذى يصدر دون تكلف أو تصنع ، وللطبع أوقات وظروف تزيد فى سماحته . « وللشعر دواع تحث البطىء وتبعث المتكلف ، منها الطمع ،

---

(١) « الشعر والشعراء » ١ / ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٢ .

ومنها الشوق ، ومنها الشرب ، ومنها الطرب ، ومنها الغضب » . وأمثلة ذلك ما يلاحظ من قوة شعر الكميت فى بنى أمية مع تشيعه ، ويعلله « بقوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » . ومنها ما قاله كثير من أن الشعر إذا عسر عليه طوّف بالرياض المعشبة فيسهل عليه أرصنه ويسرع إليه أحسنه .

وهناك حالات تعترى القريحة فتعوقها عن قرض الشعر ، « ولا يعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم »[١].

ولها أوقات تجود فيها ، ويسرع إليها أتىّ الشعر ، ويسمح أبيُّه ، « منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير »[٢] .

٦ – منازل الشعر :

الحكم على شعر شاعر وتفضيله على شعر آخر يخضع عنده لعدة عوامل ، أولها مقدار الجيد فى مجموع شعر أحدهم ونسبته إلى الردىء منه ، ومنها التأثر الوقتى فيفضل الشاعر الذى يشغل شعره الذهن بطول القراءة ، ولله در القائل : أشعر الناس من أنت فى شعره حتى تفرغ منه . ويحفظ الشعر ويختار للفظه ومعناه ، وحسن التشبيه فيه ، وخفة الروى ، وغرابة المعنى ، أو لنبل القائل (كأن يكون خليفة أو أميراً أو رجلاً فاضلا) .

ويحكم على الشعر بالتكلف ، فلا يختار ، إذا ما كانت صياغته دالة على شدة العناء بكثرة ما يرد فيه من الضرورات ، أو ما يلاحظ فيه من تفاوت بين معانيه وأبياته ، « فيأتى البيت فيه مقروناً بغير جاره . ومضموماً إلى غير الفقه »[٣] ، ولذلك قيل فيه : ليس له قران .

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٧ .

(٣) « الشعر والشعراء » ١ / ٣٦ .

٧ – الشعراء وموضوعات الشعر :

يختلف موقفهم ومقدار إجادتهم فى الموضوعات المختلفة ، فبعضهم « من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء . ومنهم من يتيسر له المراثى ويتعذر عليه الغزل . وأمثلة ذلك كثيرة فنحن نجد ذا الرّمة أشعر الناس فى التشبيب فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع [١] » .

٨ – عيوب الشعر :

وهى عيوب متصلة بالصياغة ، من حيث سلامة الأوزان ، أو اعتدال القوافى وصحتها ، وتواردها على روىّ واحد ، أو هى عيوب متصلة بالإعراب ، وتظهر فيما قد يلجأ إليه الشاعر من تسكين متحرك أو تحريك ساكن ، أو قصر ممدود ، أو إيراد ألفاظ وحشيّة ، واستعمال اللغة القليلة فى العرب . ومن تلك الضرورات ما يصحّ التجاوز عنه ، ومنها ما لا يغفر للشاعر إذا وقع فيه .

* * *

وهكذا تنتهى مقدمة الكتاب ، وقد وضع فيها كما بينّا الأصول العامة للشعر والشعراء ، ويضطلع الكتاب بعد هذا بذكر الشعراء الذين أشار إليهم فيما سبق بادئاً بامرئ القيس ، وقد أفاض فى ترجمة امرئ القيس ، وقام بتحقيق وقائع حياته مع إيراد أبيات من شعره شواهد عليها ، وانتهى إلى ذكر فضله فى الشعر ، وأقوال بعض الأئمة والعلماء فيه ، فذكر قول عمر بن الخطاب وأبى عبيدة ، وابن الكلبى ، وما قيل من سبقه إلى كثير من المعانى واتباع الشعراء له فيها كتشبيه الخيل بالعصا ، وبكاء الديار . ويورد أمثلة من أبيات امرئ القيس ومع أبيات قلده فيها الشعراء الآخرون .

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٤١ .

واتبع هذا المنهج فى أكثر الشعراء بعد ذلك ، وكان يعرض فى أثناء كلامه إلى كثير من خصائصهم الشعرية ، كأن يرى أن زهيراً كان يتأله فى شعره ، وأن عدى بن زيد كان من الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم ، يعارضها ولا يجرى مجاريها ، وأن العرب لا تروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وأنه كان لا يحسن أن ينعت الخيل .

ويتبع فى ترتيب الشعراء نهجاً تاريخيًّا إلى حدمّا ، فيبدأ بشعراء الجاهلية القدماء الذين لم يدركوا الإسلام ، ثم بالذين أدركوا الإسلام كلبيد بن ربيعة ، والنابغة الجعدى ، ولكن هذا النظام لم يطرد أحياناً ، فقد أورد مثلا مهلهل ربيعة بين النابغة الجعدى ، والعباس بن مرداس . ومهلهل شاعر قديم جاهلى يقال إنه أول من هلهل الشعر ، والنابغة والعباس ممن أدركوا الإسلام وأنشدوا النبى صلى الله عليه وسلم . ثم يذكر بعد هؤلاء الشعراء من عاصروا الخلفاء الراشدين وبنى أمية وهكذا . .

وقد أورد فى كتابه ترجمة جمهرة من الشعراء أطال فى الكلام عن كل منهم وقصر حسب مكانته وما يروى من شعره أو يستجاد ويستشهد به .

وشخصية ابن قتيبة فى هذه التراجم غير واضحة وضوحها فى مقدمة الكتاب ، وخاصة من وجهة نظر الناقد ، فقد نقل أخبار أولئك الشعراء من كتب سابقيه ومعاصريه بغير تصرف أحياناً كما هو ظاهر فى نقله عن كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام .

وقد تنبه لذلك الدكتور مندور في كتاب « النقد ومناهجه عند العرب » فقال فى ذلك : « فابن قتيبة لم يتناول النصوص ولا الشعراء بنقد فنى تطبيقى ، وإنما اكتفى بأن عرض فى مقدمته لبعض المسائل العامة يحاول أن يضع لها مبادئ ؛ ثم أخذ فى سرد سير الشعراء وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدأ فى التأليف »[١] .

---

(١) « النقد ومناهجه عند العرب » ص ١٢ .

وكتاب « الشعر والشعراء » بعد هذا يعتبر خطوة متقدمة بالنسبة « للبيان والتبيين » و « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام؛ فهو يجمع بين اتجاهيهما فى منهج منظم إلى حدّ ما ، فيه أصالة رأى واضحة ، وقد أثر هذا المنهج فى كتب النقد التى جاءت بعده ، فنرى مثلا تقسيمه الشعر إلى أقسام أربعة من حيث اللفظ والمعنى شائعة من بعده عند ابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢هـ فى كتاب « عيار الشعر » وعند أبى هلال العسكرى فى « كتاب الصناعتين » . كما أن تلك الأقسام كانت قاعدة لكثير من الدراسات والأبواب البلاغية التى تفرعت عند المتأخرين .

ونرى حملته على اللغويين تطّرد وتصبح آراؤه التى أبداها فى معارضة آرائهم مبادئ فى دراسات النقاد الكبار الذين جاءوا بعده فى القرن الرابع مثل القاضى الجرجانى ، واستمرت حلقات السلسلة فجاء ضياء الدين بن الأثير فى القرن السادس يتابع الحملة على اللغويين بعنف ، ويرى أن للغويين ميداناً آخر غير الأدب والبيان .

ب ــ كتاب « معانى الشعر »

وكتاب « معانى الشعر الكبير » ، أو «أبيات المعانى» كما يسمّى أحياناً، متمم فى موضوعه للكتاب السابق : « الشعر والشعراء » ، فهو يتناول أبواباً من المعانى المختلفة مثل النساء والغزل ، والسباع والوحوش ، والإبل والخيل ، ويذكر ما جاء فى كل منها من الشعر ، ثم يشرح غريبه .

والكتاب حلقة من سلسلة متشابهة فى هذا الموضوع عرفت كلها باسم « معانى الشعر »[1] ومنها « معانى الشعر » للأشناندانىّ ، وكتاب «جمهرة

(١) راجع « أثر القرآن فى تطور النقد العربى » للمؤلف ص ٢٠٠ ، وقد ألف فى ذلك جماعة منهم الأخفش الأوسط المتوفى سنة ٢١٠ ق ، وأبو نصر أحمد بن حاتم الباهلى المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، وأبو العميثل المتوفى سنة ٢٤٠ هـ .

أشعار العرب » للقرشى ، وكتاب « النوادر » لأبى زيد .

والغرض من تأليف هذه الكتب هو خدمة تفسير القرآن . قال القرشى : « هذا كتاب جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام الذين نزل القرآن بألسنتهم واشتقت العربية من ألفاظهم ، واتخذت الشواهد فى معانى القرآن وغريب الحديث من أشعارهم وأسندت الحكمة والآداب إليهم » ، كما كانت تهدف أيضاً إلى تعليم الناس صحة فهم كلام العرب .

وقد سمّيت كتب معانى الشعر بهذا الاسم على قول السيوطى « لأن العرب قالتها فصادف أن تكون ألغازاً ، وهى نوعان فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها ، وأكثر أبيات المعانى من هذا النوع . وقد ألف ابن قتيبة فى هذا النوع »[1] .

والكتاب يشهد على قدرة مؤلفه ومكانته فى علم اللغة ، وسعة اطلاعه ومعرفته بشعر العرب وأسرار كلامهم . وما بين أيدينا منه غير تام[2] ، وأهم ما ينقصه مقدمة المؤلف ، وهى فيما نحسب ترسم منهجه فيه كما تعودنا ذلك منه فى مقدمات كتبه جميعاً ، ونحن نشك فى أنه لم يكتب مقدمة لهذا الكتاب كما هو ظاهر فى المطبوع .

ويسير فيه على هذا النحو : يبدأ فى الجزء الأول بكتاب الخيل ، فيتكلم عما جاء فى صفاتها ، فى عدوها ووثبها ، ولحوقها بالصيد ، وما تشبه به من تشبيهها بالعقاب والبازى ، وبالنعامة ، وما يستقبح من صورها وأعضائها وما يستحسن ، مع ذكر ما توارد فى ذلك من قديم الشعر ، وتفسير غريبه. ويجرى على هذا المنهج فى أبوابه الأخرى من «كتاب السباع» ، ويضم أنواع الوحوش والحيوان الضارى ، كالذئاب والضباع والسباع ، كما يضم غيرها من الحيوان

---

(١) « المزهر » للسيوطى جـ ١ ص ٢٧٥ .

(٢) طبع الكتاب بحيدر آباد بالهند سنة ١٩٤٩ م ، وقد ذكر محققه وناشره أنه ينقصه بعض الأجزاء التى لم يتيسر له العثور عليها .

كالأرانب والكلاب والطيور كالغربان ، والعقبان والنسور والصقور والرخم والحمام والقطا ، والكتاب الثالث فى « الطعام والضيافة » ، ويحتوى على ما قيل فى القدور والجفان[١] ، والعقر للضيفان ، والقرى باللبن ، وذكر الخمر وآلاتها ، والكتاب الرابع فى الذباب وغيره كالجراد والنحل والعسب والجعل والقراد والعنكبوت والنمل . وكتاب الحرب ، وما جاء فيها فى الطعنة والشجة والضربة والديات والثأر ، والبيض والدروع والقسىّ والسهام والسيوف والرماح ، والعداوة والبغضاء والحقد . وكتاب الميسر وغيره ويتكلم عما جاء فى الميسر والتطير والفأل ، وفى الشعر والشعراء ، وفى الشيب والكبر ، وفى وصف الآثار وتشبيهها .

ويمكن تلخيص خصائص الكتاب فيما يلى :

١ ــ أنه جمع ذخيرة أدبية قيمة من الشعر العربى القديم فى موضوعات مختلفة تتصل بضروب الحياة عند العرب ، وتكشف لنا عن عاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية ، كما تضع بين أيدينا قصائد ومقطعات نادرة لا نعثر عليها فى كثير من كتب الأدب القديم التى نعرفها .

٢ ــ أنه يفسّر لنا كثيراً من الألفاظ الغريبة ، مما يصح أن يكون معجماً حيًّا لتلك الألفاظ ، وهو معجم يجمع النظائر ، وما يتصل من ألفاظ اللغة بموضوع واحد أو موضوعات متقاربة ، وهو يورد كثيراً من الصيغ التى لا ترد فى المعاجم المطبوعة أحياناً ، كما أنه يعرض لكثير مما يعترى ألفاظ اللغة من التحريف والتصحيف وما يتناقلة اللغويون خطأ ، وهو مصحّف أو محرف عن أصل صحيح قد غابت عنهم معرفته .

٣ ــ والكتاب بعد هذا ليس مجرد إيراد لأبيات وتفسير غريبها من الناحية اللغوية ، بل إنه يعمد أيضاً إلى شرح بعض الصور البيانية من استعارة وتشبيه مع الاستطراد أحياناً إلى الإفاضة فى شرح أحوال العرب ، أو وصف المواطن التى يرد ذكرها ، أو تأتى إشارة إليها .

---

(١) الجفان : جمع جفنة وهى القصعة

ويظهر فى الكتاب ما امتاز به ابن قتيبة دائماً فى كتبه من منهج وترتيب . فهو يضع المقدمات ويتسلسل فى إيراد الموضوع ومعالجة مسائله البارزة ، ثم ينتهى إلى النتائج التى يحصل عليها ، وقد ظهرت شخصيته العلمية هذه فى كتاب « معانى الشعر » فى ترتيب الكتاب ، فقد قسمه إلى كتب ، يتناول كل منها موضوعاً عامًّا يندرج تحته موضوعات فرعية ، ثم يأتى بالموضوعات المتشابهة ويضمها بعضها إلى بعض ، ويخرج من موضوع إلى آخر بتخلص حسن لا تحس فيه بالنقلة المباغتة .

وقد تطورت فكرة معانى الشعر من صورتها التى نراها عند ابن قتيبة ومعاصريه فى القرن الثالث الهجرى وصارت عند مثل أبى هلال العسكرى من أدباء القرن الرابع الهجرى أكثر اتجاهاً إلى الناحية الأدبية؛ فنراه مثلا فى كتاب « ديوان المعانى » يجمع شعراً فى موضوعات مختلفة ، فى الغزل وفى الوصف ، وغير ذلك ، كما يعنى الراغب من بعده فى « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء » بالموضوع نفسه ، وفى صورة أوسع ، وأبو هلال والراغب كلاهما يوردان مختار الشعر من القدماء والمحدثين على السواء وهما يستهدفان من وراء ذلك متعة القارئ ، وتقديم محصول جميل من الشعر ، لا أن يفسرا غريب الشعر كما فعل ابن قتيبة ومعاصروه .

٥ ــ منزلة ابن قتيبة

ذكرنا فى غير هذا الموضع آراء بعض العلماء فى ابن قتيبة كالحافظ الذهبى وابن تيمية والأزهرى والسمعانى وابن خلدون ، وكيف اختلفت تلك الآراء مدحاً وقدحاً ، وإشادة به وثلباً. ولا عجب أن تتباين الآراء فى رجل خصب الإنتاج ، وافر المصنفات قد تعرّض لكثير من المشكلات الدينية والفقهية والأدبية واللغوية وعارض فيها جمهرة من العلماء والباحثين . وإننا لنقدم لك مقتطفات من آراء العلماء فيه تستشفّ منها منزلة ابن قتيبة :

قال أبو الطيب الحلبي : « وكان أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينورى أخذ عن أبى حاتم والرياشي وعبد الرحمن بن أخى الأصمعي وقد أخذ ابن دريد عن هؤلاء كلهم وعن الأشْنانْدانىّ ، إلا أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات » .

وقال الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبي النيسابورى المعروف بابن السبيّع : « كان ابن قتيبة يتعاطى التقدم فى العلوم ولم يرضه أهل علم منها وإنما الإمام المقبول عند الكل : أبو عبيد » .

وقال الحافظ السّلَفى أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهانى الجروانى : « كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنّة ولكن الحاكم بضده من أجل المذهب » .

وقال مسلم بن قاسم : « كان ابن قتيبة لغويّاً كثير التأليف عالماً بالتصنيف صدوقاً من أهل السنة » .

وقال الخطيب البغدادى : « شهرته ظاهرة فى العلم . ومحلّه فى الأدب لا يحقر » .

وقال ابن حزم أبو محمد على بن أحمد بن سعيد : « كان ابن قتيبة ثقة فى دينه وعلمه » .

وقال الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر : « ابن قتيبة النحوى اللغوى صاحب المصنفات الكثيرة البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة ، أحد العلماء والأدباء والحفاظ الأذكياء . كان ثقة نبيلا » .

وقال ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد : « كان فاضلا ثقة وتصانيفه كلها مفيدة . . . »

تلك هى بعض الآراء فى ابن قتيبة نثرت نثراً على علاّتها فى هذا المقام ولن يصعب على قارئ هذا الكتاب وعلى الباحث فى تصانيف ابن قتيبة أن يعرفه ويقدره قدره الصحيح .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن قتيبة

١ – ابن قتيبة الفقيه العالم

فضل القرآن

وإنّما يعرفُ فَضلَ القُرآنِ من كَثُرَ نظرُه ، واتّسعَ علمُه ، وفهِمَ مذاهبَ العرب وافتنانَها فى الأساليب ، وما خصَّ اللهُ به لغَتَها دون جميع اللغاتِ ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمّةٌ أوتيتْ من العارضة[1] ، والبيان ، واتّساعِ المجالِ ، ما أُوتيَتْهُ العربُ خِصِّيصَى من الله لما أرْهَصَهُ فى الرّسُول ، وأرادَه من إقامةِ الدّليل على نُبوّتِه بالكتاب ، فجعله عَلَمه كما جعل عَلَم كل نَبِيّ من المرْسَلين من أشْبهِ الأمورِ بما فى زمانِه المبعوثِ فيه .

فكان لموسى فَلْقُ البحر ، واليدُ ، والعَصا ، وتَفجّرُ الحجَرِ فى التيهِ بالماء الرّواءِ[2] ، إلى سائرِ أعلامه زمنَ السِّحْرِ .

وكان لعيسى إحياءُ الموْتَى ، وخَلْقُ الطّيْر من الطين ، وإبْرَاءُ الأكْمَهِ[3] والأبْرصِ ، إلى سائرِ أعلامه زمَنَ الطّبِّ .

وكان لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم الكتابُ الذى لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثلهِ لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهِيرًا ، إلى سائرِ أعلامهِ زمنَ البيان[4] .

---

(١) العارضة : قوة الكلام والرأى الجيد .

(٢) الرواء : العذب .

(٣) الأكمه : الذى يولد أعمى .

(٤) « مشكل القرآن » .

وللعربِ المجازاتُ فى الكلام ، ومعناها طُرُقُ القولِ ومآخذهُ ، ففيها الاستعارة والتَّمثيل ، والقَلْبُ ، والتَّقديمُ ، والتَّأخيرُ، والحذف ، والتكرارُ ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاحُ ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبةُ الواحدِ مخاطبةَ الجميع ، والجميعَ خطابَ الواحد ، والواحدَ والجميعَ خطابَ الاثنين ، والقَصْد بلفظ الخصوص لمعنى العمومِ ، وبلفظ العموم ، لمعنى الخُصوص . . .

وبكلَ هذه المذاهبِ نزَل القرآن ، ولذلك لا يقدرُ أحدٌ من التَّراجم على أن ينقله إلى شيء من الألْسنةِ كما نُقِلَ الإنجيلُ من السّريانيَّة إلى الحبَشيَّةِ والرُّوميةِ ، وتُرجمت التَّوراة والزبورُ، وسائرُ كتبِ الله تعالى بالعربية؛ لأنَّ العَجَمَ لم تتَّسعْ فى المجازِ اتساعَ العرب .

ألا ترى أنك لو أردتَ أن تنقلَ قولَه تعالى : ﴿ وإمَّا تخافَنَّ من قوم خيانَةً فانبِذْ إليهم على سَوَاء ﴾ لم تستطعْ أن تأتِيَ بهذه الألفاظِ مؤدّيةً عن المعنى الذى أودِعَتْهُ حتَّى تبسطَ مجموعَها ، وتصلَ مقطوعَها وتُظْهِرَ مستورَها فتقول : إن كان بينك وبين قوم هُدْنَةٌ وعهدٌ فخفْتَ منهم خيانةً ونَقضًا فأعْلِمهُمْ أنك قد نقضتَ ما شرطتَ لهم، وآذِنْهُمْ بالحربِ ؛ لتكون أنت وهم فى العلم بالنَّقْض على استْواء .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فضَرَبْنَا على آذانِهم فى الكهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ إن أردتَ أن تنقله بلفظه لم يفهمْه المنقولُ إليه ، فإن قلتَ : أنمْنَاهُمْ سنينَ عَددًا لكنتَ مترجمًا للمعنى دون اللفظ .

وكذلك قوله : ﴿ والذينَ إذا ذكّرُوا بآياتِ رَبِّهمْ لم يَخِرُّوا عَلَيها صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ إن تَرْجمتَهُ بمثل لفظه استَغْلَقَ ، وإن قلت : لم يتغافلوا أدَّيْتَ المعنى بلفظٍ آخر [1].

---

(١) « مشكل القرآن » .

الاحتجاج للقرآن

فأمّا ما نَحلُوه من التّناقُضِ فى مثل قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يُسْأَلُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانّ ﴾ . وهو يقولُ فى موضع آخر : ﴿ فوربِّكَ لنسألنّهُم أجمَعينَ عمّا كانوا يَعمَلُون ﴾ فالجوابُ فى ذلك أنّ يومَ القيامة يكون كما قال الله تعالى : ﴿ مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة ﴾ ، فى مثلِ هذا اليومِ يُسألون ، وفيه لا يُسْألون ، لأنّهم حين يُعرَضُون يُوقَفُون على الذّنوب ويُحاسَبُون . فإذا انتهتْ المسألةُ ووجبتْ الحجّةُ : ﴿ انشقّت السّماءُ فكانتْ وَرْدَةً كالدِّهان ﴾ وانقطع الكلامُ ، وذهَبَ الخصام ؛ واسودّتْ وجوهُ قومٍ وابيضّت وجوهُ آخرين ، وعُرِفَ الفريقانِ بسيماهم وتطايرت الصُّحف من الأيدى ، فأخِذٌ ذاتَ اليمينِ إلى الجنّة ، وآخذٌ ذات الشّمال إلى النّار ، وكذلك قال ابن عبّاس رضى الله عنه فى قوله : ﴿ فيومئذ لا يُسْألُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانّ ﴾ ، قال : هو موطِنٌ لا يُسْألُون فيه . ومثله : ولا يُسألُ عن ذُنُوبِهم المجرِمُون ﴾ . . .

وقوله : ﴿ قُلْ أئنّكم لتكفُرون بالذى خلَقَ الأرضَ فى يومَيْن ، وتجعلونَ له أنْداداً ذلك ربُّ العالمين . وجعَل فيها رواسِيَ من فوقِها وباركَ فيها وقدر فيها أقواتَها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السّماءِ وهى دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتِيا طَوْعًا أو كَرْهًا قالتا أتينا طائعين ﴾ ، فدلّتْ هذه الآيات على أنه خلَقَ الأرض قبل السّماء .

وقال فى موضع آخر : ﴿ أم السّماءُ بناها رَفَعَ سَمْكَها فسوّاها وأغْطَشَ ليلَها وأخْرَجَ ضُحاها والأرضَ بعد ذلك دَحاها ﴾ ، فدلّت هذه الآية على أنه خلق السّماءَ قبل الأرض .

وليسَ على كتابِ الله تحريفُ الجاهلين ، وغلَطُ المتأوِّلين ، وإنما كان يجد الطّاعنُ مُتَعلَّقًا ومقالاً لو قال : والأرضَ بعد ذلك خلَقَها أو ابتدأها

أو أنشأها ، وإنما : ﴿ دَحَاها ﴾ فابتدأ الخلق للأرض على ما فى الآيِ الأوّل فى يومين ، ثم خلق السماواتِ وكانت دُخانًا فى يومين ثم دَحَا بعد ذلك الأرض أى بسطَها ومدّها ، وكانت رَبْوَةً مجتمعةً ، وأرْسَاها بالجبال وأنْبتَ فيها النَّباتَ فى يومين ، فتلك ستّةُ أيام سواءً للسَّائلين ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقال مجاهد : « بعد ذلك » فى هذا الموضع ، بمعنى « مع ذلك » و « مع » و « بعد » فى كلام العرب سواء . . .

وأمَّا قوله : ﴿ مَثَلُ الجنَّة التى وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ ، ولم يأتِ بالشَّىءِ الذى جعل له الجنَّة مَثَلاً ، فإن أصل المثَل ما ذهبوا إليه من معنى المِثْل تقول : هذا مِثْلُ الشىءِ ومَثَلُهُ ، كما تقول : هذا شِبْهُ الشىء وشَبَهُهُ .

ثم قد يصير المِثْلُ بمعنى صورة الشىء وصِفَته ، وكذلك المثال والتِّمثالُ يقالُ للمرأة الرَّائقة : كأنَّها مِثالٌ ، وكأنَّها تِمثالٌ ، أى صورة ، كما يقالُ كأنَّها دُمْيَة ، أى صورة ، وإنما هى مَثَل ، وقد مَثَّلتُ لكَ كذا أى صَوَّرْتُه وصفتُه .

فأراد الله بقوله : مَثَلُ الجنةِ ، أى صورتُها وصفتُها .

ورُوىَ أن عليًّا رحمه الله كان يقرأ : مِثالُ الجنَّة ، وهو بمنزلةِ مَثَلٍ ، إلاّ أنه أوضح وأقربُ فى أفهامِ الناس إلى المعنى الذى تأوّلناه فى مَثَل .

ونحوه قوله : ﴿ محمَّدٌ رسولُ اللهِ والَّذين معه أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بينهمْ تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغُونَ فَضْلاً من اللهِ ورِضْوانًا ، سِيماهُم فى وجوهِهِمْ من أثَرِ السجُود ﴾ ، ثم قال : ﴿ ذلك مَثَلُهم فى التَّوْراةِ ومَثَلُهم فى الإنجيل ﴾ ، أى ذلك وصْفُهم لأنه يضربُ لهم مَثَلاً فى أولِ الكلام ، فيقول : ﴿ ذلك مَثَلُهم ﴾ وإنما وصفهم وحلاّهم ثم قال : ذلك مَثَلهم أى وصفُهم .

وقوله : ﴿ يا أيها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا له ﴾ ، ثم قال: ﴿ إن الذينَ تَدْعُون من دونِ الله لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً ولو اجْتَمَعُوا له ﴾ ، ولم يأت بالمثَل ، لأن فى الكلام معناه ، كأنه قال : يا أيها الناس مثلكم مثل من عَبَد آلِهةً اجتمعت لأنْ تَخْلُقَ ذُباباً فلم تقدر عليه ، وسَلَبَها الذُّبابُ شيئاً فلم تَستنقِذْه منه[١] . . .

متشابه القرآن

وأمَّا قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه فى القرآن ، من أراد بالقرآن لعباده الهدى والتِّبيان ؟

فالجواب عنه : أنّ القرآن نزلَ بألفاظِ العَرَب ومعانيها ، ومذاهِبِها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتَّوكيد ، والإشارةِ إلى الشيء، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهرَ عليه إلاّ اللَّقِنُ[٢] ، وإظهارِ بعضها ، وضربِ الأمثال لما خفِي .

ولو كان القرآنُ كلّه ظاهراً مكشوفاً حتى يَستَوِى فى معرفته العالمُ والجاهلُ لبَطَلَ التفاضُلُ بين الناس ، وسقطت المِحْنةُ ، وماتت الخواطِر .

ومع الحاجةِ تقع الفكرةُ والحيلة ، ومع الكِفايةِ يقع العَجْز والبَلادة وقالوا : عَيْب الغِنَى أنَّهُ يُورِثُ البَلَه ، وفضيلَةُ الفقرِ أنه يبعث الحيلة .

وقال أكْثَمُ بنُ صَيْفِىّ : ما يسُرُّنى أنى مَكْفِىٌّ كُلَّ أمر الدُّنْيا . قيل له : ولِمَ ؟ قال : أكرهُ عادةَ العَجْز .

وكلُّ بابٍ من أبوابِ العلم : من الفِقْهِ والحسابِ والفرائضِ والنَّحْو

---

(١) « مشكل القرآن » .

(٢) اللقن : السريع الفهم .

فمنه ما يَجِلُّ ، ومنه ما يَدِقُّ ليرتقى المعلّمُ فيه رُتبةً بعد رُتبة ، حتى يبلغَ مُنْتَهاه ، ويُدْرِكَ أقصاه ، ولتكون للعالِمِ فضيلةُ النظرِ ، وحسنُ الاستخراج ، ولِتَقَعَ المثوبةُ من اللهِ على حسن العناية .

ولو كانَ كل فنٍّ من العلوم شيئًا واحدًا ، لم يكن عالمٌ ولا متعلّم ، ولا خَفِيٌّ ولا جَلِيٌّ ؛ لأن فضائلَ الأشياء تعرفُ بأضدادِها ، فالخير يُعْرَفُ بالشرّ ، والنَّفْعُ بالضُّر ، والحلو بالمُرّ ، والقليلُ بالكثير ، والصغير بالكبير ، والباطِنُ بالظاهر .

وعلى هذا المثال كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلامُ صحابته والتّابعين ، وأشعارُ الشعراء ، وكلامُ الخطباء ، ليس منه شيءٌ ، إلاّ وقد يأتى فيه المعنى اللطيف الذى يتحيّرُ فيه العالِمُ المتقدّمُ ، ويقرُّ بالقصورِ عنه النَّقّابُ المبرّزُ . . .

ولَسْنَا ممّنْ يَزْعُمُ أن المتشابهَ فى القرآن لا يعلَمُه الرّاسِخُونَ فى العلم . وهذا غلطٌ من متأوّليه على اللغة والمعنى ، ولم يُنزِلِ اللهُ شيئًا من القرآنِ إلاّ لينفعَ به عبادَه ، ويدلّ به على معنًى أرادَه ؛ فلو كان المتشابه لا يعلمه غيرُه للَزِمَنَا للطّاعِنِ مقالٌ ، وتعلّق علينا بعِلّة .

وهل يجوزُ لأحد أن يقول : إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه ؛ وإذا جاز أن يعرفَهُ مع قول الله تعالى : ﴿ وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ ﴾ جاز أن يعرفه الرّبّانيون من صحابته ، فقد علّم عليًّا التّفْسيرَ ، ودعا لابْن عبّاس فقال : « اللّهُمّ علمْهُ التّأويلَ ، وفَقِّهْهُ فى الدّين » . . .

وبعد فإنّا لم نرَ المفسّرين توقّفُوا عن شىءٍ من القرآن فقالوا : هذا متشابهٌ لا يعلمه إلاّ الله ، بل أمَرُّوه كُلَّهُ على التّفسير ، حتى فسّروا الحروفَ ، المقطّعةَ فى أوائل السّوَرِ مثل : الٓر ، وحم ، وطه ، وأشباه ذلك . . .[1] .

---

(١) « مشكل القرآن » .

القول فى المجاز

وأمّا المجازُ فمن جهته غَلِطَ كثيرٌ من النّاس فى التّأويل ، وتشعّبت بهم الطّرق واختلفت النِّحَل ، فالنّصارى تذهبُ فى قولِ المسيح عليه السّلام فى الإنجيل : «أدعو أبى ، وأذهب إلى أبى» وأشباه هذا ، إلى أُبُوّةِ الولادة.

ولو كان المسيحُ قالَ هذا فى نفسِهِ خاصةً دون غيره ، ما جازَ لهم أن يتأوّلُوه هذا التّأويلَ فى « الله » — تبارك وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا — مع سعة المجاز ، فكيفَ وهو يقولهُ فى كثير من المواضع لغيره . كقوله حين فتح فاهُ بالوحى : « إذا تصدّقْتَ فلا تُعلم شمالك بما فعلت يمينُك فإنّ أباكَ الذى يرى الخَفِيّاتِ يَجْزيك به علانيةً ، وإذا صلّيْتُم فقولوا : يا أبانا الذى فى السّماء ليتقدّسِ اسمُك ، وإذا صُمْتَ فاغْسل وجهكَ وادهن رَأسَك لئلاّ يعلمَ بذلك غيرُ أبيك » .

وقد قرءوا فى الزّبُور أنّ الله تبارك وتعالى قال لداودَ عليهِ السّلام : « سيُولدُ لك غلامٌ يُسمّى لى ابْنًا وأسمّى لهُ أبًا » .

وفى التّوْراةِ أنّه قال ليعقوبَ عليه السّلام : « أنت بِكْرِى » . وتأويل هذا أنّه فى رحمته وبِرِّه وعَطْفِهِ على عِبادهِ الصّالحين ، كالأبِ الرّحيم لولده . وكذلك قال المسيحُ للماء : « هذا أبى » ، للخبز : « هذا أمى » : لأنّ قوام الأبدان بهما ، وبقاءَ الروح عليهما ، فهما كالأبوين اللذين منهما النشأة وبحضانتهما النماءُ .

وكانت العربُ تُسمّى الأرض أمًّا لأنها مبتدأ الخلق ، وإليها مرجِعُهم ، ومنها أقواتُهم وفيها كفايتُهم . وقال أميّةُ بن أبى الصّلْت :

والأرضُ معْقِلُنا وكانت أمَّنَا ... فيها مقابِرُنا وفيها نُولَدُ

وقال يذكرها :

منها خُلِقْنَا وكانتْ أمّنا خُلِقتْ ... ونحن أبناؤُها لو أنّنا شُكُرُ

هىَ القَرارُ فما نَبْغى لها بَدَلاً ... ما أرْحمَ الأرضَ إلاّ أنّنا كُفُرُ

وقال الله تعالى فى الكافر : ﴿ فأمُّه هاوية ﴾ لما كانت الأمّ كافلةَ الولدِ وغاذيته ، ومأواه ومربِّيتَه ، وكانت النَّار للكافر كذلك — جعلها أُمَّه . . .

وأمَّا الطَّاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنَّهم زَعَمُوا أنَّه كَذِب ، لأن الجدارَ لا يريدُ ، والقريةَ لا تَسأل .

وهذا من أشْنَعِ جهالاتِهِم ، وأدلّها على سُوء نظرهم ، وقلَّةِ أفهامهِم . ولو كان المجازُ كَذِبًا ، وكلُّ فعل يُنْسَبُ إلى غيرِ الحيوان باطلاً — كان أكثرُ كلامِنا فاسدًا ؛ لأنَّا نقولُ : نَبَتَ البَقْلُ ، وطالت الشَّجرة ، وأيْنَعَتِ الثَّمرةُ ، وأقام الجبل ورخُص السعرُ .

ونقول : كان هذا الفعلُ منك فى وقتِ كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كُوِّن .

وتقول : كان الله ، وكان بمعنى حَدَث ، والله جلَّ وعزَّ قبل كل شىء بلا غاية ، لم يحدث فيكون بعدَ أن لم يكن . . .

* * *

ولو قلنا للمُنْكِرِ لقوله : ﴿ جدارًا يريدُ أن ينقضّ ﴾ : كيفَ كنتَ أنتَ قائلاً فى جدارٍ رأيتَهُ على شَفَا انْهيار : رأيتَ جدارًا ماذا ؟ لم يَجِدْ بُدًّا من أن يقول : جدارًا يَهُمُّ أن يَنْقَضّ . وأيًّا ما قال فقد جعله فاعلاً ولا أحْسِبُه يَصلُ إلى هذا المعنى فى شىء من لغاتِ العجم إلاّ بمثلِ هذه الألفاظ .

وأنشدنى السَّجستانى عن أبى عبيدةَ فى مثلِ قولِ اللهِ : ﴿ يريد أن ينقضّ ﴾ :

يُريدُ الرُّمحُ صَدْرَ أبى بَراءٍ ويرغَبُ عن دِماء بَنِى عقيلِ

وأنشد الفراء :

إنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِى بِجُمْلٍ لزمَانٌ يَهُمُّ بالإحْسانِ

والعرب تقول : بأرض فلانٍ شجرٌ قد صاح ، أى طال ؛ لمَّا تبيَّنَ الشَّجرُ للنَّاظر بطولِه ، ودلَّ على نفسه ، جعله كأنَّهُ صائحٌ ؛ يدُلُّ على نفسه بصوته . . .[١].

فى سورة سبأ

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ .

تأويله : أن إبليس لما سأل الله تبارك وتعالى النَّظِرَةَ فأنْظَرَهُ قال : ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ[٢] آذانَ الأنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَلأَتَّخِذَنَّ مِنْهُمْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ؛ وليس هو فى وقتِ هذه المقالة مستيقنًا أنَّ ما قدَّره الله فيهم يتمُّ ، وإنَّما قاله ظانًّا ، فلمَّا اتبعوه وأطاعُوه صدق ما ظنَّه عليهم أى فيهم ، ثم قال الله : وما كان تسليطُنا إيَّاه إلاَّ لنعلم من يؤمن أى المؤمنين من الشَّاكين .

وعِلْمُ الله تعالى نوعان :

أحدُهما عِلْمُ ما يكونُ من إيمانِ المؤمنين ، وكُفْرِ الكافرين ، وذُنوبِ العاصين ، وطاعات المطيعين قبل أن تكون . وهذا عِلْمٌ لا تجبُ به حجّة ، ولا تقع عليه مَثُوبةٌ ولا عقوبة .

والآخر : عِلْمُ هذه الأمورِ ظاهرة موجودة ، فيحقّ القول ويقعُ بوقوعها الجزاء ، فأراد جلّ وعزَّ : ما سلَّطناه عليهم إلاّ لنعلم إيمان المؤمنين ظاهرًا موجودًا ، وكفر الكافرين ظاهرًا موجودًا .

---

(١) « مشكل القرآن » .
(٢) البتك : القطع .

وكذلك قولُه سبْحانه : ﴿ أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِين جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[١] أى يعلم جهاده وصبره موجودًا ، يجبُ له به الثَّواب .

وقوله سبْحانه : ﴿ قُلْ إنَّمَا أعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيد ﴾[٢] .

تأويله أنَّ المشْركين قالوا : إنّ محمَّدًا مجنونٌ وساحِر ، وأشباه هذا من خَرْصهم[٣] فقال اللهُ جلَّ وعزَّ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلم : قلْ لهم : اعتبروا أمرى بواحدة ، وهى أن تنصحُوا لأنفسكم ، ولا يميل بكم هوًى عن حقٍّ فتقوموا لله وفى ذاته مقامًا يخلو فيه الرّجل منكم بصاحبه فيقول له : هلمَّ فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجلِ جِنَّة قط ، أو جربنا عليه كَذِبًا ؟ فهذا موضعُ قيامهم مَثْنَى .

ثم ينفردُ كلُّ واحدٍ عن صاحبه ، فيفكّر وينظرُ ويعتبرُ ؛ فهذا موضع قيامهم فُرادى ، فإن فى ذلك ما دلَّهم على أنَّه نذير .

وكلُّ من تحيَّرَ فى أمرٍ قد اشْتبه عليهِ واسْتَبْهم ، أخرجه من الحَيْرة فيه : أن يسأل ويناظر ثم يفكر ويعتبر .

القول فى الشراب

وأمَّا ما نذهبُ إليه ونَراهُ عَدْلاً من القول ، خارجًا من الإفراطِ والتَّقْصيرِ ، فتحريمُ الخمر بالكتاب والسنة ، وكراهة ما أفترَ وأخْدَرَ من الأشربة تأديبًا . والمحرمُ شيئان : شيءٌ حرَّمهُ اللهُ تعالى نصًّا فى القرآن ، كالميتةِ ، والدَّمِ ، ولحم الخنزير ، والخمر ، وهذا فرضٌ على المسلمين أن

---

(١) سورة آل عمران ١٤٢

(٢) سورة سبأ ٤٦ .

(٣) خرصهم : كذبهم .

يجتنبوهُ ولا يطعموه ، فمن طعم منه شيئًا عامدًا ، غير مستغفرٍ منه ولا نادمٍ عليه ، فالنّارُ مَثْواهُ ، إلا أن تلحقَهُ رحمةُ اللهِ التى وسعت كلّ شيءٍ ، وعفوُه الذى لا ييأسُ منه إلاّ الكافرون .

ومثلُ هذا من المحرم الفرائضُ نحو الصَّلواتِ الخمس ، وزكاةِ المال ، وصوم شهرِ رمضان ، ليس لأحدٍ أن يترك من هذا شيئًا ، فمَنْ تَرَكَه عامدًا ، ثم لقى اللهَ غير مستغفرٍ منه ولا نادم ، فهو بِحالِ الأوَّل .

والمحرَّمُ الآخرُ ، شىءٌ حَرَّمهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، كسباعِ الطَّيْر ، والوحش ، والحُمُر الأهليَّة ، وكتحريمه الحريرَ والذهبَ والدّيباج ، وهذا واجبٌ على المسلمين أن يُحرّموه ، وليس كوجوبِ الأوَّل ، ولا التغليظُ فيه على من خالفَ ، كالتغليظ فى الأول ، وقد أتت الرخصُ فى أوله كالقليلِ من الدّيباج يكون فى الثَّوْبِ والقليل من الحرير .

ويعد المحرم بالسنَّة شىءٌ نهى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عنه ، وأمر به على جهة التأديب ، فالعمل به فضيلةٌ ومَثُوبة ، وليس على تاركه عقوبةٌ ، كأمره بالتلحِّى ونهيه عن الامتعاط[1] . وكنهيه عن لحوم الجلاَّلَة[2] وعن كسب الحجام ، وهذا ليس مما حرَّمَ اللهُ تعالى ، ولا ممَّا حرّم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

والأشربة بهذا السبيل ما حدها الخمر ، وهى محرّمةٌ بكتاب الله تعالى ، كما حرّمت الميتة ، والدّم ، ولحم الخنزير ، لا يحل منها قليلٌ ولا كثير ، حتى تفسدَ ويفارقها العرضُ الذى حرَّمها .

والخمر نوعان : أحدهما مجمعٌ عليه ، والآخر مختلف فيه ، فأمَّا المجمعُ عليه فهو ما غلا من عصير العنب من غير أن تصيبه النَّار ، أجمع المسلمون جميعًا على أن هذا خمرٌ لا يحلُّ منه شىء ، ولا يستعملُ بطعام ولا شراب ، ولا دواء حتى ينقلبَ فيصيرَ خلاًّ .

---

(١) من معط الشعر أى نتفه .   (٢) الجلالة : البقرة تتبع النجاسات .

والجنس الآخر المختلف فيه ، هو نقيعُ الزّبيب إذا اشتدّ ، ونقيع التّمْر إذا صلب ، وهو السُّكرُ . . . يقول بعض الناس : ليس ذاك بخمر . . . وقال آخرون : هو خمرٌ ، وهذا هو القول الأوْلى[1] .

رأى ابن قتيبة فى الجاحظ

ثم نصيرُ إلى الجاحظ وهو آخرُ المتكلّمين ، والمعايرُ على المتقدّمين ، وأحسنُهم للحجّة استثارةً ،وأشدُّهم تلطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظُم ،وتصغيرِ العظيم حتى يَصْغُر . ويبلغُ به الاقتدارُ إلى أن يعملَ الشيء ونقيضَه ، ويحتجّ لفضلِ السّودان على البِيضان ، وتجده يَحتَجّ مرةً للعثمانيةِ على الرّافضة ، ومرّةً للزيديّة على العثمانيةِ وأهل السنّة ، ومرّةً يُفَضّلُ عليًّا رضى الله عنه ، ومرّةً يؤخِرهُ ، ويقول : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، ويُتْبِعُه قال الجماز ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويجلُّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أن يُذكر فى كتاب ذُكرا فيه ، فكيف فى ورقةٍ ، أو بعد سطرٍ وسطرين . ويعمل كتابًا يذكرُ فيه حجج النّصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوّزَ فى الحجّةِ كأنه إنّما أراد تَنْبِيهَهُمْ على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفةِ من المسلمين .

وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعَبَث ، يريد بذلك استمالةَ الأحداثِ وشُرّابِ النّبيذِ ، ويستهزئ من الحديثِ استهزاءً لا يَخفى على أهلِ العلم ، كذكره كبِدَ الحوت وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوّده المشركون ، وكان يجب أن يبيّضهُ المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصّحيفة التى كان فيها المنزلُ فى الرّقاع تحت سرير

---

(١) كتاب « الأشربة » .

عائشة فأكلتها الشّاةُ ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى تنادم الدّيك والغراب ، ودفن الهدهد أمّه فى رأسه ، وتسبيح الضّفْدع ، وطَوْق الحمامة وأشباه هذا مما سنذكره بعدُ إن شاء الله — وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديثٍ ، وأنصرهم لباطل .

ومن علم رحمكَ الله أن كلامه من عمله قلّ إلا فيما ينفعُه ، ومن أيقن أنه مسئولٌ عمّا ألّفَ ، وعمّا كتبَ لم يعمل الشيءَ وضِدَّه ، ولم يستفرغ مجهودَه فى تثبيتِ الباطلِ عنده . وأنشدنى الرياشيّ :

ولا تكتبْ بخطّكَ غيرَ شيءٍ يَسرُّكَ فى القيامةِ أن تراهُ[1]

٢ — ابن قتيبة العريف

تطرق ابن قتيبة فى بعض كتبه للتاريخ والمعارف العامة فنراه فى أحد الفصول من كتاب « المعارف » يذكر المساجد وتاريخها وكيفية بنائها .

الكعبة

ذكرَ وهْبُ بنُ منبه أنّ اللهَ تبارك وتعالى ، لمّا أهْبَطَ آدمَ إلى الأرض ، حزنَ واشتدّ بكاؤه على الجنَّة ، فعزّاهُ الله بخيمةٍ من خيامِ الجنَّة ، فوضعَهَا له بمكّة فى موضعِ الكعبة ، قبل أن تكونَ الكعبة ، وكانت الخيمةُ ياقوتةٌ حمراءَ من ياقوتِ الجنَّة ، فيها قناديلُ من ذَهَبٍ من تِبْرِ الجنَّة ، ونزل معها الرّكن يومئذ ، وهو ياقوتةٌ بيضاءُ ، وكان كرسيًّا لآدمَ يجلسُ عليه ، فلمّا كان الغَرَقُ زَمنَ نوح عليه السَّلام ، رفع ومكثت الأرضُ خرابًا ألفى سنة ، حتّى أمرَ اللهُ ، تبارك وتعالى ، إبراهيمَ أن يبنىَ بيته ، فجاءت السكينة كأنّها سَحابةٌ فيها رأسٌ يتكلّم ، له وجهٌ كوجهِ الإنسان ، فقالت : يا إبراهيمُ خُذْ ظلّى فابْنِ عليه ، فبنى

---

(١) كتاب « تأويل مختلف الحديث » .

هو وإسماعيلُ البيتَ ، ولم تزلْ خيمةُ آدمَ عليه السَّلام ، إلى أن قُبِض ، ثم رفعها الله إليه ، وبنى بنو آدمَ من بعده فى موضعها بيتًا من الطِّين والحجارة ، ثم نسفه الغرق فعفى مكانه ، حتَّى ابتعثَ اللهُ تعالى إبرهيمَ عليه السَّلام ، وحفَر عن قواعده وبناه على ظلّ الغَمامة ، فهو أوَّلُ بيت وُضعَ للنَّاس ، وأوّلُ من كساهُ الأنطاعَ والبُرودَ اليمانية ، أسعدُ أبو كرب الحِمْيَرى فقال :

وكَسَوْنا البيتَ الذى حرَّمَ اللَّـ ـهُ ملاءً معضَّدًا وبرُودا

وبَنَتْهُ قُريش قبل مبعثِ النبيّ ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، بخمس سنين ، وبناهُ عبدُ الله بن الزُّبير بعد ما بُويعَ له بالخلافة ، فلمَّا قُتل ابنُ الزُّبَيْر ، نقَضَ الحجَّاجُ بنيانَ ابن الزبير ، وبناهُ على الأساس الأوَّل ؛ ثم وسَّع مسجدَ الكعبة ، أبو جعفر المنصور سنة وَلِيَ الخلافة ، ثم زادَ فيه المهدى سنة ستين ومائة .

(حدّثنى) أبو حاتم عن الأصمعى ، عن عمر بن قيس قال : فى البيتِ من الحجرِ سبْعُ أذرع وأصابع ، أو قال وإصبعان ، قال وقال الأصمعى : قال أبو غزارة : الحجرُ الأسودُ على قدر الجدر ، يعنى ركن الكعبة الذى عند الملتزم ، وحدّثنى عنه ، عن الأعمَش عن مُجاهد قال : المسعى ، ما بين دار عباد إلى بئر ابن مطعم ، ولكنّ النَّاسَ حفّوه بالبناء . قال غير واحد : ذرعُ الكعبة أربعمائة وتسعون ذراعًا مكسورة ، وذكر قوم أنّ أبى بن سالم الكلبى ، ورد مكّةَ وقريشٌ تبنى البيت وتشاجروا فى إخراج النَّفَقة ، فسألهم أن يولّوه ركنًا من أركانه ، فولّوه الربع الذى فيه الركن اليمانى ، فبناه فسمّى اليمانى ، وقال شاعرهم .

لنا أيمنُ البيتِ الذى تعبدونَهُ وراثة ما بقى أبىّ بن سالمِ

وأكثرُ النَّاسَ على أنه سمّى يمانيًّا لأنه من شقّ اليمن ، والمؤذنون فيه ولد أبى محذورة[1] .

---

(١) كتاب « المعارف » .

بيت المقدس

ذكر وَهْب أن إسحقَ بنَ إبراهيم النبيّ عليهما السلام ، أمر يعقوبَ ابنه أن لا ينكح امرأةً من الكنعانيين ، وأن ينكح من بناتِ خاله لابان بن ناهر بن آزر ، وكان مسكنه الفرّان[١] فتوجّه إليه يعقوب ، فأدركه الليل فى بعض الطريق ، فباتَ متوسِّدًا حَجَرًا ، فرأى فيما يرى النّائمُ ، سُلَّمًا منصوبًا إلى بابٍ من أبوابِ السّماء عند رأسه ، والملائكة تنزلُ منه ، وتعرجُ فيه ، وأوحى الله تبارك وتعالى إليه أنى أنا الله لا إله إلا أنا ، إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، وقد ورّثْتُكَ هذه الأرضَ المقدّسةَ وذرّيتك ، وباركتُ فيك وفيهم ، وجعلتُ فيكم الكتاب والحكمة والنبوّة ، ثم أنا معك حتى أردّك إلى هذا المكان ، وأجعله بيتًا تعبدُنى فيه وذرّيتك ، فيقال إنه بيتُ المقدس ، وبناه داود ، وأتمّه سليمان عليهما السّلام ، ثم خربه بُخْتَنَصَّر ، فمرّ به عزير ، فرآه خرابًا والقرية ، فقال أنّى يُحْيِي هذه اللهُ بعد موتها ، فأماتَهُ الله مائة عام ، وابتناه ملكٌ من ملوكِ فارس يقال له كورش[٢].

مسجد الكوفة

لمّا نزلَ المسلمون المدائن ، وطال بها مَكْثُهُمْ ، وآذاهُم الغُبار والذّباب ، كتب عمرُ إلى سعد فى بعثه رُوّادًا يرتادونَ منزلاً بريًّا بحريًّا ، فإن العرب لا يُصْلِحُها من البلدان إلاّ ما أصلح الشّاةَ والبعير ، فسأل من قبله عن هذه الصّفة ، فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان ، وهو ظهرُ الكوفة ، وكانت العربُ تقولُ : أدلع البرّ لسانه فى الريف ، فما كان

---

(١) فران بتشديد الراء بلاد واسعة بالمغرب . (٢) كتاب « المعارف » .

يلي الفرات منه فهو الملطاط ، وما كان يلي الطّين منه فهو النّجاف : فكتب عمر إلى سعد يأمره به ، وكان نزولُهم الكوفة سنة سبع عشرة : فالبصرة أقدمُ منها بثلاث سنين ، وزياد بن أبي سفيان هو باني مسجد الكوفة . ورُوِى فى بعض الحديث أن موضع مسجدها فار التنّور [1] .

الطوال

جال ابن قتيبة فى ميادين شتّى من العلوم والمعارف وها هو ذا يسرد تاريخ الطوال من الرجال .

كان حبيبُ بن مسلمة الفِهرىّ كالمشرف على دابّة لطوله .

وكان عمرُ بن الخطّاب رضى الله تعالى عنه ، كأنّهُ راكبٌ والنّاس يمشونَ لطوله .

العباسُ بن عبد المطّلب وكان يمشى فى الطوائف كأنّه عمارية على ناقةٍ والنّاسُ كلهم دونه .

وكان جرير بن عبد الله البجلىّ ، يتفلُ فى ذروةِ البَعير من طوله ، وكانت نَعْلُه ذراعاً .

وكان عدىّ بن حاتم طويلاً إذا ركب الفرسَ كادت رِجْلُهُ تخطُّ فى الأرض .

وكان قيسُ بن سعد طويلاً جسيماً ، وكتب ملكُ الروم إلى معاوية : أرْسلْ إلىَّ سراويل أجسم وأطول رجلٍ عندك ، فقال معاوية ما أعلمه إلاّ قيس بن سعد ، فقال لقيس : إذا انصرفت فابعثْ إلىَّ سراويلك ، فخلعها ورمى بها إليه ، فقال : ألا بعثتَ بها من منزلك فقال :

أردتُ لكيلا يعلمَ النّاسُ أنّها سراويلُ قيس والوفودُ شهودُ
وأنْ لا يقولَ النّاسُ بالظنّ إنّها سراويل عادىٍّ نَمتْهُ ثمودُ

---

(١) كتاب « المعارف » .

وعبيد الله بن زياد، كان طويلاً لا يرى ماشياً إلا ظنّوه راكباً من طوله .

وكان عليّ بن عبد الله بن العباس طويلاً جميلاً ، وعجب قومٌ من طوله، فقال رجلٌ يا سبحانَ الله ! كيف نقص النّاس، ولقد أدركتُ العبّاس يطوف بهذا البيت ، كأنّه فسطاط أبيض ، فحدث بذلك على فقال : كنتُ إلى منكبِ أبي : وكان أبي إلى منكبِ جدّي .

وكان جبلة بن الأيْهم ، آخر ملوك غسّان ، طوله اثنا عشر شبراً ، وإذا ركب مسحتْ قدمهُ الأرض ، وأسلم فى خلافةِ عمر ، ثم تنصّر بعد ذلك ولحق ببلاد الرّوم .

وكان عمارة بن عُقْبة الحنفيّ الخارجي ، طويلاً . ولما مات لم يجدوا سريراً يحملونَهُ عليه ، فزادوا فى السَّرير ألواحاً ، وأمّنه الحجّاج فمات بالبصرة[1] .

جوامع الآداب والأخبار

عنى ابن قتيبة بالآداب الإنسانية والقيم الأخلاقية وآداب السلوك وما إلى ذلك فجمع منها قسطاً وافراً من كتبه . وفيما يلى نبذ من ذلك :

المحبة

قال حدّثنى أحمدُ بن الخليل ، عن محمَّد بن بشّار ، بن يحيى بن سعيد ، عن ثور بن يزيد ، عن حبيب بن عُبيد ، عن المقدام بن معديكرب ، وكان أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلَّم قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وسلم : «إذا أحبّ أحدُكم أخاه فليُعْلمْهُ أنَّهُ يُحبه » .

وحدّثنى محمد بن داود ، عن أبي الربيع ، عن حمَّاد بن زيد ، عن ليث ، عن مجاهد قال : ثلاثٌ يُصْفينَ لك وُدّ أخيك : أنْ تبدأهُ بالسّلام

(١) كتاب « المعارف » .

إذا لقيتَه ، وتوسّعَ له فى المجلس ، وتدعوه بأحبِّ أسمائه إليه . وثلاثٌ من العيّ : أن تعيبَ على النّاس ما تأتى ، وأن ترى من النّاس ما يخفى عليك من نفسك ، وأن تؤْذى جليسَك فيما لا يَعنيك .

وكان يقال : لا يكن حبُّك كَلَفًا ولا بغْضُك تَلَفًا . أى لا تُسْرف فى حبِّك وبُغْضك . ونحوه قولُ الحسن : أحبُّوا هونًا ، فإنّ أقوامًا أفْرَطوا فى حبّ قوم فهلكوا . وكان يقال : من وجد دون أخيه سِتْرًا فلا يَهتكْه .

وقال عمر بن أبى ربيعة :

أتانى هَواها قبلَ أن أعرفَ الهَوى فصادَفَ قَلْبًا فارِغًا فتمكّنا

قال عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لطُلَيْحَة الأسَدى : قتلتَ عُكّاشةَ ابنَ مِحْصَن ! لا يحبّك قلبى ! قال: فعاشرةً جميلةً يا أميرَ المؤمنين. فإنّ النّاسَ يتعاشرون على البَغْضاء .

وكتب رجلٌ إلى صديق له : الشّوقُ إليك وإلى عهدِ أيّامك — التى حسنتْ بك كأنّها أعياد، وقصُرَت بك حتّى كأنها ساعات — يفوتُ الصِّفات ؛ وممّا جدّد الشوق وكثّر دواعيه ، تصاقبُ الدّار ، وقربُ الجوار ، تمّم الله لنا النعْمة المتجدّدة فيك ، بالنظر إلى الغُرّة المباركة التى لا وحشةَ معها ولا أُنْسَ بعدها . . .

وكتب رجلٌ إلى صديق له فى فصل من كتاب : لسانى رَطْبٌ بذكرك ، ومكانُكَ من قلبى معمورٌ بمحبّتك . ونحوه قول مَعْقِل أخى أبى دُلَف لمحارق :

لعَمْرى لئن قرّتْ بقربك أعينٌ لقد سخنَتْ بالبَيْنِ منك عيونُ
فسِرْ وأقِمْ ، وقفٌ عليك مودّتى مكانُكَ من قلبى عليك مَصُونُ

وقال رجلٌ لشَبيب بن شَيْبَة : واللهِ أُحِبُّك، قال: وما يمنعُك من

ذلك وما أنتَ لى بجار ، ولا أخٍ ولا قرابة[١] ؟ يريد أن الحسدَ موكّل بالأدنى فالأدنى .

قال رجلٌ لشهر بن حوشب : إنى لأحبك قال : ولِمَ لا تحبنى وأنا أخوك فى كتابِ الله ، ووزيرك على دين الله ، ومؤونتى على غيرك ! قال بشّار :

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً ... تُدْنى إليكِ فإنَّ الحُبَّ أقصانى

وقال غيره :

أحبُّك حُبَّيْنِ لى واحدٌ ... وحبٌّ لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأمَّا الذى أنت أهلٌ لهُ ... فحسنٌ فَضَلْتَ به مَنْ سواكا
وأمَّا الذى فى ضميرِ الحشا ... فلستُ أرى الحسنَ حتى أراكا
وليسَ لىَ المنُّ فى واحدٍ ... ولكنْ لك المَنُّ فى ذا وذاكا

ونحوه لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

فلستُ براءٍ عيبَ ذى الوُدِّ كله ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا
وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ عين السخْطِ تُبْدِى المساويا

وقال أعرابى :

أحبُّك حبًّا لو بُليت ببعضه ... أصابكِ من وجدٍ علىَّ جُنونُ
لطيفٌ مع الأحشاءِ أمَّا نهارُهُ ... فسَبْتٌ وأمَّا لَيْلُه فأنينُ[٢]

وكتب رجلٌ إلى صديق له : الله يعلمُ أنّى أحبُّك لنفسك فوق محبتى إيَّاك لنفسى ، ولو أنى خُيِّرتُ بين أمرين : أحدهما لى وعليك ، والآخر لك وعلىَّ ، لآثرت المروءةَ وحسن الأحدوثة ، بإيثار حظّك على حظى ، وإنى أحبُّ وأُبغضُ لك وأوالى وأعادى فيك . . . .[٣] .

---

(١) ولا قرابة : أى ولا ذى قرابة ، وقد أنكر صاحب القاموس استعمال قرابة فى مثل هذا الموضع بدون إضافة . وتعقبه شارحه بأن استعماله بدون الإضافة جائز وورد فى فصيح الكلام من نثر وشعر .

(٢) السبت : السكون والراحة .

(٣) «عيون الأخبار» باب المحبة من كتاب الإخوان .

آداب الأكل والطعام

رأى رجلٌ رجلاً يأكلُ لَحْماً فقال : لحمٌ يأكلُ لَحْماً ، أفٍّ لهذا عملاً !

وكان عمرُ يقول : إيّاكم وهذه المجازرَ فإنّ لها ضَراوة(1) كضراوة الخمر .

يا بُنيّ عوّد نفسكَ الأُثْرَة(2) ، ومجاهدةَ الهوى والشّهْوة ، ولا تنهش نهْشَ السّباع ، ولا تخضِم خضْمَ البَراذين ولا تُدْمِن الأكل إدمان النّعاج ، ولا تَلْقَمْ لَقَمَ الجمال ، فإنّ الله تعالى جعلك إنساناً وفضّلك ، فلا تجعل نفسك بهيمةً ولا سَبُعاً ، واحذرْ سرعةَ الكِظّة(3) وسَرَف البِطْنة . . .

يا بُنيّ ، والله ما أدّى حقّ الرُّكوع والسجود ذو كِظّة ، ولا خشع اللهَ ذو بِطنة ، والصوم مصحّة ، والوَجَبات(4) عيشُ الصّالحين .

أي بُنيّ ، لأمرٍ مّا طالت أعمارُ الهند ، وصحّت أبدان الأعراب . فللّه درُّ الحارث ابن كَلَدة حيث يزعُم أن الدّواء هو الأزْم(5) ، وأنّ الدّاء إدخال الطّعام إثْر الطعام .

أي بُنيّ ، لِمَ صَفَتْ أذهانُ الأعراب ، وصحّت أبْدانُ الرّهْبان مع طولِ الإقامة في الصّوامع ، حتى لم تعرف النِّقْرِس(6) ولا وجعَ المفاصل ، ولا الأورام ، إلا لقلّة الرُّزْء(7) وخفّة الزّاد . وكيف لا ترغبُ في تدبير يجمع

---

(1) الضراوه بالشيء : الولع به .

(2) الأثره : المكرمة لأنها تؤثر أي تذكر ويأثرها قرن عن قرن .

(3) الكظة : الامتلاء من الطعام .

(4) الوجبات : جمع وجبة وهي الأكلة ، في اليوم والليلة .

(5) الأزم : ألا تدخل طعاماً على طعام .

(6) النقرس : داء يأخذ في الرجل .

(7) الرزء : ما يصيبه الإنسان من الطعام .

للك صحةَ البَدن ، وذكاء الذّهْن وصلاحَ المِعَى(١) ، وكثرةَ المال ، والقربَ من عيش الملائكة !

أى بُنىَّ لِمَ صار الضبُّ أطولَ شىءٍ ذَماءً(٢) إلا لأنه يتبلَّغ بالنسيم .

أى بُنىَّ ، قد بلغتُ تسعينَ عامًا ما نَغَضَ(٣) لى سن ، ولا انتشر(٤) لى عَصَب ، ولا عرفتُ ذَنِين(٥) أنْف ، ولا سَيَلانَ عَيْن ، ولا سَلَس بول ؛ ما لذلك علّةٌ إلا التّخفيف من الزّاد . فإن كنتَ تحبّ الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة ، وإن كنتَ تريدُ الموتَ فلا يُبعد الله إلا من ظلم نفسَه .

وقال أبو نَهْشَل : كانت لى ابنةٌ تجلس معى على المائدة ، فتُبرز كفًّا كأنها طَلْعة ، فى ذراع كأنه جُمّارة ، فلا تقعُ عينها على أكلة نفيسة إلا خصّتنى بها ، فزوّجتُها وصرت أُجلِسُ معى على المائدة ابنًا لى ، فيبرز كفًّا كأنها كِرْنافة ، فى ذراع كأنه كَرَبَة ، فوالله ما إن تسبق عينى إلى لُقْمة طيبة إلا سبقتْ يده إليها . . .(٦) .

الاستنجاع بالرشوة والهدية

حدّثنى زيد بن أخزم . عن عبد الله بن داود قال سمعت سُفْيان الثورىّ يقول : إذا أردتَ أن تتزوّج فأهْدِ للأمّ ، والعرب تقول : من صانعَ(٧) لم يحتشمْ من طلب الحاجة .

---

(١) المعى : المصارين .
(٢) الذماء : بقية النفس والحركة .
(٣) نغض : قلق وتحرك .
(٤) انتشر : انتفخ .
(٥) الذنين : المخاط الرقيق يسيل من الأنف .
(٦) « عيون الأخبار » باب آداب الأكل والطعام من كتاب الطعام .
(٧) صانع : هادى .

قال ميمونُ بن ميمون : إذا كانت حاجتُك إلى كاتب فليكن رسُولك الطَّمَع .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْمَ الشىءُ الهديَّةُ أمامَ الحاجة .

وقال رؤبة :

لمَّا رأيتُ الشُّفعاءَ بلَّدُوا ... وسألوا أميرَهم فأنكدوا[1]
نامستُهم برشوةٍ فأقردُوا ... وسهَّلَ اللهُ بها ما شدَّدوا[2]

وقال آخر :

وكنتُ إذا خاصمتُ خصمًا كببْتُه ... على الوجهِ حتَّى خاصمتنى الدَّراهمُ
فلمَّا تنازَعْنا الخصومةَ غُلِّبتْ ... علىَّ وقالوا قُمْ فإنَّكَ ظالمُ[3]

والعرب تقول فى مثل هذا المعنى : من يخطب الحسناء يُعْطِ مهرًا . يريدون من طلب حاجة مهمَّة بذل فيها .

وقال بعض المحدَّثين .

ما من صديق وإن تمَّتْ صداقتُهُ ... يومًا بأنجحَ فى الحاجاتِ من طبَقِ
إذا تلثَّمَ بالمنديلِ منطلقًا ... لم يخش نَبْوةَ بوَّابٍ ولا غلَقِ
لا تكذبنَّ فإنَّ النَّاسَ مذ خُلقوا ... لرغبةٍ يكرمونَ النَّاسَ أو فرَقِ

وقال آخر :

ما أرسل الأقوامُ فى حاجةٍ ... أمضى ولا أنجحَ من درهمِ
يأتيكَ عفوًا بالذى تشتهى ... نِعم رسولُ الرَّجل المسلمِ[4]

---

(١) بلدوا : يقال بلد الرجل إذا لم يتجه لشىء وبلد إذا نكس فى العمل وضعف . أنكدوا : لم يعطوا .

(٢) نامستهم : ساورتهم . أقردوا ذلوا وخضعوا .

(٣) غلب الرجل على صاحبه إذا حكم له عليه بالغلبة .

(٤) « عيون الأخبار » باب استنجاح الحوائج من كتاب الحوائج .

شجاعة العرب

وأمَّا الشجاعةُ ، فإن العرب فى الجاهلية أعزُّ الأمم نفسًا ، وأعزُّها حريمًا وأحماها أنوفًا ، وأخشنُها جانبًا ، وكانت تُغيرُ فى جنبات فارس وتطرُقها حتى تحتاج الملوك إلى مداراتها وأخذ الرهنِ منها ، والعجمُ تفخرُ بأساورة فارس ومرازبتها ، وقد كان لعَمرى لهم البأسُ والنجدة ، غير أن بين العرب وبينها فى ذلك فرقًا ؛ منه أن فارس كانت أكثرَ أموالاً ، وأجودَ سلاحًا ، وأحصن بيتًا ، وأشدَّ اجتماعًا ، وكانت تحاربُ برياسة ملك وسياسة سلطان ؛ وهذه أمورٌ تُقوّى المُنَّة وتَشُدُّ الأركان ، وتُؤَيدُ القلوب ، وتثبِّتُ الأقدام . والعربُ يومئذ منقطعةٌ ليس لها نظام ، ومتفرقة ليس لها التئام ، وأكثرها يُحارب راجلا بالسَّيف الكليل ، والرُّمْح الذليل ، والفارسُ منها يحارب على الفرس العربى الذى لا مسرجَ له ، وعلى السرج الرثِّ الذى لا ركابَ له . والأغلبُ على قتال العجم الرمى ، والأغلب على قتال العرب السيف والرّمحُ ، وهما أوصل فى الجد ، وأبعدُ من الفرار ، وأدلّ على الصبر .

وشجعانُهم فى الجاهلية مثلُ عُتيبة بن الحارث بن شهاب صيَّادُ الفوارس ؛ وبسطام بن قيس ، وبجير وعفان ، ابنى أبى مليل ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن وُدّ ، وأشباههم . وفى الإسلام مثل الزبير وعلىّ وطلحة ورجال من الأنصار ، وعبد الله بن حازم السلَمى ، وعبَّاد بن الحصين .

وقال : ما ظننت أن أحدًا يعدلُ بألف فارس حتى رأيتُ عبَّادًا ليلةَ كابل وقطرىّ بن الفجاءة وشبيب الحرورى . وأمثال هؤلاء عدد الرمل والحصى ، ليس منهم أحدٌ إذا أنت توقَّفت على أخباره وحاله فى شجاعته ، إلا وجدته فوق كل أسوار ، والرِّجليون[١] للعرب خاصة .

---

(١) الرجليون : قوم كانوا يعدون على أرجلهم .

وقرأت فى كتب العجم أن بهرام جور كان فى حجر ملك العرب بالبادية ، فلما بلغه هلاك أبيه وأن الفرس عزموا على أن يُملّكوا غيره ، سار بالعرب حتى نزل السوادَ ، وطالبهم بالملك ، وجادلهم عنه ، حتى اعترفوا له بالحق وملّكوه .

وقد كان كسرى أغزى بنى شيبان جيشًا ، فاقتتلوا بذى قار ، فهزمت بنو شيبان أساورةَ كسرى ، فهو يوم ذى قار .

شرف العرب على جميع الأمم

. . . أتى الله بالإسلام فابتعث نبيَّه منها (من العرب) النبيّ صلى الله عليه وسلم ، سيّدَ الأنبياء ، وخاتَمَ الرّسُل . وناسخ كلِّ شرعة ، وحائزَ كل فضيلة ؛ ونشر عددَها ، وجمع كلمتها ، وأمدها بملائكته ، وأيدها بقوته ، ومكّن لها فى البلاد ، وأوطأها رقاب الأمم ، وجعل فيها خلافة النبوّة ثم الإمامة خالدةً تالدة ، حتى يأتى المسيحُ صلى الله عليه وسلم فيصلى خلف الإمام منها فاردةً لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتى بمثلها . وخاطبها يومئذ فقال : ﴿ كنتم خيرَ أمة أخرجت للنّاس ﴾ ، فلها فضلُ هذا الخطاب ، والأممُ طرًّا داخلةٌ عليها فيه . وأما قوله لبنى إسرائيل ﴿ فضّلكم على العالمين ﴾ فإنه من باب العام الذى أريد به الخاص ، كقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ وأنا أوّلُ المسلمين ﴾ ، وحكاية عن موسى : ﴿ وأنا أوّلُ المؤمنين ﴾ . وقد كانت الأنبياءُ قبلهما مؤمنين ومسلمين ؛ فإنما أراد موسى زمانه[1] .

---

(١) كتاب « العرب أو الرد على الشعوبية » .

٣ – ابن قتيبة الأديب اللغوى

الأدب واللغة والعلوم اللسانية كانت جانباً من الجوانب التى عالجها قلم ابن قتيبة سواء فيما ألف من كتب فى الفقه والدين والحديث أم فى الكتب التى أفردها بتلك العلوم فهو تارة المرشد الهادى إلى اللفظ الصحيح والأسلوب القويم وهو تارة أخرى المفسر لمعانى الألفاظ والحروف والناشر فى اللغة قواعدها الصحيحة .

أدب الكاتب

أمَّا بعدُ ، حمداً لله بجميعِ محامِدِه ، والثَّناء عليهِ بما هو أهْلهُ ، والصلاةُ على رسولِه المصطفى وآلِه فإنى رأيتُ أكثرَ أهلِ زمانِنا هذا عن سبيل الأدبِ ناكِبين ، ومن اسمه متطيِّرين ، ولأهْلِه كارِهين . أمَّا النَّاشئُ منهم فراغبٌ عن التعليم ، والشَّادى تاركٌ للازدياد ، والمتأدِّب فى عُنْفوَان الشَّباب ناسٍ أو متناس ليدخل فى جُمْلةِ المجدُودِين ، ويخرج فى جُمْلة المحدودين ، فالعلماءُ مغمورُون بكثرةِ الجهل ، مقموعُون حين خوى نجمُ الخير ، وكسدتْ سوقُ البرّ ، وبارتْ بضائعُ أهله ، وصار العلمُ عاراً على صاحبه ، والفضلُ نَقْصاً ، وأموالُ الملوك وَقْفاً على النفوس ، والجاهُ الذى هو زكاةُ الشَّرف يُباعُ بَيْعَ الخلق ، وآضت[1] المروءاتُ فى زخارف النجد ، وتشييد البنيان ؛ ولذات النفوس فى اصْطفاق المزاهر ، ومعاطاة النَّدمان ، ونُبذت الصَّنائع ، وجُهِلَ قدرُ المعروف ، وماتت الخواطر وسقطت هِمَمُ النفوس ، وزُهِدَ فى لسانِ الصّدْق ، وعقد الملكوت ، فأبعدُ غاياتِ كاتبنا فى كتابته أن يكونَ حَسَنَ الخطّ قويمَ الحروف ، وأعلى منازِل أديبنا أن يقولَ من الشعر أبياتاً فى مدح قَيْنَة[2] أو وصف

---

(١) آض : عاد وأصبح .

(٢) القينة : الأمة والمغنية .

كاس ، وأرفع درجاتِ لطيفِنا أن يطالعَ شيئًا منْ تقويم الكواكب ، وينظر فى شىء من القضاء وحدّ المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطَّعْن ، وهو لا يعرف معناه . وعلى حديث رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، وهو لا يدرى من نقله ، قد رضى عوضًا من الله وممَّا عنده بأن يقالَ فلانٌ لطيفٌ ، وفلانٌ دقيق النظر ، يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علمَ ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرّعاع والغُثاء[1] والغُثْرُ[2] وهو لعمْر الله بهذه الصّفات أوْلَى ، وهى به ألْيق ، لأنَّه جَهِلَ وظن أنْ قد علِمَ ، فهاتان جهالتانِ ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجبَ بنفسه ، الزارى على الإسلام برأيه ، نظر من جهةِ النظر لأحياه الله بنور الهُدَى ، وبُلجِ اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظرَ فى علْم الكتاب ، وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته . وفى علومِ العرب ولغاتِها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقلّ فيه المناظرون ، له ترجمةٌ تروق بلا معنى ، واسمٌ يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغمر والحدث الغرّ قوله الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة ، والكيفية والكميَّة ، والزمان والدليل ، والأخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، وظنّ أن تحت هذه الألقابِ كلّ فائدة وكلّ لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرَض لا يقوم بنفسه ، ورأسُ الخطّ النقطة ، والنقطة لا تنقسم ، والكلام أربعة : أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصّدْق والكَذب ، وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحدٌ يدخله الصّدْق والكَذِب ، وهو الخبر ، والآن حدّ الزمانين مع هذيان كثير . والخبر

---

(١) الغثاء : البالى من ورق الشجر المخالط زبد السيل والمقصود به الرعاع .

(٢) الغثر : سفلة الناس .

ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا كذا مائة من الوجوه ، فإذا أرادَ المتكلمُ أن يستعملَ بعضَ تلك الوجوه فى كلامه ، كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعِيًّا فى المحافل ، وغفلةً عند المتناظرين ، ولقد بلغنى أنّ قومًا من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم أن يذكر لهم مسألةً من حدّ المنطق حسنةً لطيفة ، فقال لهم : ما معنى قول الحكيم : أوّلُ الفكرة آخر العمل ، وأوّل العمل آخر الفكرة ، فسألوه التأويل فقال لهم : مثل هذا رجلٌ قال : إنى صانعٌ لنفسى كنًّا ، فوقعتْ فكرتُه على السَّقْف ، ثم انحدر فعلم أن السَّقفَ لا يكون إلاّ على حائط ، وأنَّ الحائطَ لا يقوم إلاّ على أسّ ، وأنَّ الأسّ لا يقوم إلاّ على أصْل ، ثم ابتدأ فى العمل بالأصل ، ثم بالأسّ ، ثم بالحائط ، ثم بالسَّقف ، فكان ابتداءُ تفكّره آخرَ عمله ، وآخر عمله بدءَ فكرته . فأيَّة منفعة فى هذه المسئلة ، وهل يجهل أحدٌ هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة ، وهكذا جميعُ ما فى هذا الكتاب . ولو أنّ مؤلف حدّ المنطق بلغ زمانَنا هذا ، حتى يسمع دقائقَ الكلام فى الدّين والفقه والفرائض والنحو ، لعَدَّ نفسَه من البُكْم ، أو يسمع كلامَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وصحابته ، لأيقنَ أنّ للعربِ الحكمةَ وفصلَ الخطاب ، فالحمد لله الذى أعاذ الوزير أبا الحسن . أيَّده الله ، من هذه الرذيلة ، وأبانه بالفضيلة ، وحَباه بِخيمِ[1] السَّلَف الصالح ، ورداه رداءَ الإيمان ، وغشَّاه بنوره ، وجعله هدًى فى الضّلالات ، ومصباحًا فى الظلُمات ، وعرّفه ما اختلفَ فيه المختلفون على سَنَن الكتاب والسنَّة ، فقلوب الخيارِ[2] به متعلِّقة ، ونفوسُهم إليه مائلة ، وأيديهم إلى الله فيه مظان القَبُول ممتدّة ، وألسنتهم بالدّعاء له شافعة ، يهجع[3] ويستيقظون ، ويغفل ولا يغفلون ، وحقٌّ لمن قام لله

(١) الخيم : الطبيعة والسجية . (٢) الخيار : كرام الناس .
(٣) يهجع : يرقد .

مقامه ، وصبر على الجهادِ صَبْرَه ، ونوى فيه نيَّتَه ، أن يُلْبِسَه اللهُ لباسَ الضمير ، ويرديه رداءَ العمل ، ويصدر إليه مختلفات القبول ، ويسعده بلسان الصّدق فى الآخرين ، فإنّى رأيت كثيرًا من كتّاب أهلِ زمانِنا كسائر أهله ، قد استطابوا الدَّعة ، واستوطئوا مركبَ العَجْز ، وأعفَوْا أنفُسَهم من كدّ النظر ، وقلوبَهم من تعبِ التفكّر ، حين نالوا الدَّرك بغير سَبَب ، وبلغوا البُغْيَة بغير آلة ، ولَعَمْرى كان ذاك فأين همَّة النفس ؟ وأين الأنفَة من مجانسة البهائم ؟ وأىّ موقف أخْزَى لصاحبه من موقفِ رجل من الكتّاب اصطفاه بعضُ الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسرّه ، فقرأ عليه يومًا كتابًا ، وفى الكتاب : « ومطرنا مطرًا كثر عنه الكلأ » ، فقال له الخليفة ممتحنًا له : وما الكلأ ؟ فتردّدَ فى الجواب وتعثَّرَ لسانُه ، ثم قال : لا أدرى ، فقال : سل عنه . وفى مقام آخر فى مثلِ حاله ، قرأ على بعض الخلفاء كتابًا ذَكر فيه حاضرَ طى ، فصحَّف تصحيفًا أضحك منه الحاضرين ، ومن قول آخر فى وصف بِرْذَوْن[1] أهداه : « وقد بعثتُ به إليك أبيضَ الظهر والشَّفَتَين » فقيل له : لو قلت أرثم ألمظ ، قال : فبياض الظهر ما هو ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : إنّما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر . . .

فلمّا أنْ رأيتُ هذا الشأن كلَّ يوم إلى نُقْصان ، وخشيتُ أن يذهبَ رَسْمُه ويعفو أثرُه ، جعلت له حظًّا من غايتى ، وجزءًا من تألبفى ، فعملتُ لمُغْفِلِ التأديب كتبًا خِفافًا فى المعرفة ، وفى تقويم اللسان واليد، يشتملُ كلُّ كتاب منها على فنّ ، وأعفيتُه من التَّطْويل والتَّثْقيل ، لأنشطه لتحفُّظه ودراسته ، إن فاءتْ به همّته ، وأقيّد عليه بها ما أضلّ من المعرفة ، وأستظهر بإعداد الآلة لزمان الأدلة أو لقضاء الوَطَر ، عند

(١) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .

تبيّنِ فضلِ النظر ، مع كَلال الحدّ ويَبْسِ الطّينة بالمرهفين ، وأدخله وهو الكَوْدَنُ(١) فى مِضمارِ العِتاق ، وليست كتُبنا هذه لمن لم يتعلّق من الإنسانية إلاّ بالجسم ، ومن الكتابة إلاّ بالاسم ، ولم يتقدم من الأدوات إلاّ بالقلم والدّواة . . .

ونستحبّ له أيضًا أن يترك ألفاظَه فى كتبه ، فيجعلها على قدْرِ الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يُعْطِيَ خسيسَ النّاسِ رفيعَ الكلام ولا رفيعَ النّاسِ وضيعَ الكلام ، فإنى رأيتُ الكُتّابَ قد تركوا تفقّدَ هذا من أنفسهم ، وخلطوا فيه ، فليس يُفرِّقُونَ بين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « فرأيت فى هكذا » وبين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « فإنى رأيت كذا » ورأيك إنما يكتب بها إلى الأكفاء(٢) والمساوين ، ولا يجوزُ أن يُكْتَبَ بها إلى الرؤساء والأساتذة ، لأنّ فيها معنى الأمر ، ولذلك نصبت ، ولا يفرّقون بين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « وأنا فعلتُ ذلك » وبين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « ونحن فعلنا ذلك » ونحن لا يَكْتُبُ بها عن نفسه إلاّ أمراؤنا ، لأنّها من كلام الملوك والعظماء ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(٣) ﴾ . . .

بلاغة العرب

. . . فالخطيبُ من العرب إذا ارتجلَ كلامًا فى نكاحٍ أو حَمَالة(٤) ، أو تحضيضٍ أو صلح أو ما أشبهَ ذلك ، لم يأت به من وادٍ واحد ، بل يَفْتَنُّ فيختصرُ تارةً إرادةَ التخفيف ، ويطيلُ تارةً إرادةَ الإفهام ، ويُكرِّرُ تارة إرادةَ التوكيدِ ، ويُخفى بعضَ معانيه حتى يغمض على

---

(١) الكودن : البرذون . (٢) الأكفاء : الأمثال .

(٣) من مقدمة كتاب « آداب الكاتب » .

(٤) الحمالة : ما يحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة .

أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين ، ويشير إلى الشيء ويكني عن الشيء . وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال . وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام .

ثم لا يأتي بالكلام كله ، مهذبا كل التهذيب ؛ ومصفى كل التصفية ، بل تجده يمزج ويشوب[١] ، ليدل بالناقص على الوافر ، وبالغث على السمين . ولو جعله كله نجرا[٢] واحدا لبخسه بهاءه ، وسلبه ماءه .

ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع ، والكوكبان يقترنان فينتقص النوران ، والسخاب[٣] ينظم بالياقوت والمرجان ، والعقيق والعقيان ، ولا يجعل كله جنسا واحدا من الرفيع الثمين ولا النفيس المصون .

وألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين حرفا ، وهي أقصى طوق اللسان .

وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين ، ولست واجدا في شيء من كلامهم حرفا ليس في حرفنا إلا معدولا عن مخرجه شيئا ، مثل الحرف المتوسط مخرجي القاف والكاف ، والحرف المتوسط مخرجي الفاء والباء . فهذه حال العرب في مباني ألفاظها .

ولها الإعراب الذي جعله الله وشيا لكلامها ، وحلية لنظامها ، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب ، ولو أن قائلا قال : هذا قاتل أخي بالتنوين ، وقال آخر : هذا قاتل أخي بالإضافة ، لدل التنوين على

---

(١) شاب : خلط . (٢) نجراً : لوناً ونمطاً .

(٣) السخاب : كل قلادة كانت ذات جواهر أو لم تكن .

أنه لم يَقْتُلْه ، ودلَّ حذفُ التَّنوين على أنه قد قتَله .

ولو أنَّ قارئًا قرأ : ﴿ فلا يَحْزُنْكَ قولُهُم ، إنَّا نعلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون ﴾ ، وترك طريق الابتداءِ بإنَّا وأعْمَلَ القولَ فيها بالنصب على مذهب من ينصبُ أنَّ بالقول — كما يَنْصبها بالظَّنِّ — لقلَب المعنى عن جِهَتِه وأزاله عن طريقَته ، وجعَل النبيَّ عليه السَّلام محزونًا لقولهم إنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسِرّونَ وما يُعلنون ، وهذا كُفْرٌ ممن تعمَّده ، وضربٌ من اللَّحن لا تجوزُ الصلاةُ به ، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوَّزوا فيه .

وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « لا يُقتل قُرشى صبرًا بعد اليوم » ، فمن رواه جزمًا أوجبَ ظاهِرُ الكلام للقرشيِّ أن لا يقتل إن ارتدَّ ، ولا يُقْتَصّ منه إن قتَل . ومن رواه رفعًا انصرفَ التأويلُ إلى الخبر عن قريش أنَّه لا يرتَدُّ منها أحدٌ عن الإسلام فيستحِقّ القتل .

أفما ترى الإعرابَ كيف فرّق بين هذين المعنيين .

وقد يفرِّقون بحركةِ البناء فى الحرف الواحدِ بين المعنيين ، فيقولون : رَجُلٌ لُعْنَةٌ ، إذا كانَ يلْعَنُهُ الناسُ ، فإذا كان هو الذى يلْعَنُ النَّاسَ ، قالوا : رجُلٌ لُعَنَة ، فحرَّكوا العين بالفتْح ، ورَجُلٌ سُبَّةٌ إذا كانَ يَسُبُّهُ النَّاسُ ، فإن كان هو يَسُبُّ النَّاسَ ، قالوا : رجُلٌ سُبَبَةٌ وكذلك هُزْأةٌ وهُزَأةٌ ، وسُخْرَةٌ وسُخَرَةٌ ، وضُحْكَةٌ وضُحَكَة ، وخُدْعةٌ وخُدَعَة .

وقد يفرّقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرفٍ فى الكلمة حتى يكونَ تقارب ما بين اللفظين كتقاربِ ما بين المعنيين ، كقولهم للماء الملح الذى لا يُشربُ إلا عند الضرورة : شَرُوب ، ولِما كان دُونَهُ مما قد يُتجوَّزُ به : شَرِيب .

وكقولهم لما ارفضَّ على الثوب من البول إذا كان مثل رءوس الإبر : نَضْحٌ ، ورش الماء عليه يُجزئ من الغسل ، فإن زاد على ذلك قليلاً قيل له نَضْخٌ ولم

يُجزِئ فيه إلاّ الغَسْلُ .

وكقولهم للقبض بأطراف الأصابع : قبصٌ . وبالكفّ : قبضٌ .

وللأكل بأطراف الأسنان : قَضْمٌ ، وبالفم : خَضْمٌ .

ولما ارتفع من الأرض : حَزْنٌ . فإن زاد قليلاً قيل : حزمٌ .

وللذى يجدُ البردَ : خَصِرٌ . فإن كان مع ذلك جوعٌ قيل : خَرِصٌ .

وللنار إذا طفئت : هامدة ، فإن سكن اللهبُ وبقى من جمرها شىءٌ قيل : خامدةٌ .

وللقائم من الخيْل : صائمٌ ، فإن كان ذلك من حَفًى أو وجًى قيل : صائن .

وللعطاءِ : شُكْدٌ . فإن كان مكافأةً قيل : شُكْمٌ .

وللخطأ من غير التعمد : غلطٌ . فإن كان فى الحسابِ قيل : غلَتٌ .

وللضّيق فى العين : خَوَصٌ . فإن كان ذلك فى مؤخّرها قيل : حَوَصٌ .

وقد يكتنفُ الشىءَ معانٍ فيشتقّ لكل معنى منها اسمٌ من اسم ذلك الشىءِ كاشتقاقهم من البطن للخَميص : مُبَطَّن ، وللعظيم البطن إذا كان خِلْقَةً : بَطِين ، فإذا كان من كثرةِ الأكلِ قيل : مِبْطان ، وللمنهوم بَطِنٌ ، وللعليل البطن : مَبْطون .

ويقولون : وجدتُ الضالّةَ ووجدتُ فى الغضب . ووجدتُ فى الحُزْن ووجدتُ فى الاستغناء ، ثم يجعلون الاسم فى الضالّة وجودًا ووِجدانًا وفى الحزن وَجْدًا ، وفى الغضبِ مَوْجِدَةً . وفى الاستغناء وُجْدًا[1] .

---

(١) « مشكل القرآن » .

تفسير الألفاظ والحروف

ولابن قتيبة أبحاث كثيرة فى تفسير الألفاظ والحروف كتفسير اللفظ الواحد الذى يحتمل المعانى المختلفة أو تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تتصرف ، وهاك نموذجاً على كل من ذلك :

الخيانة

الخيانة أن يُؤْتمنَ الرّجلُ على شيء فلا يؤدّى الأمانةَ فيه :

يقالُ لكلِّ خائن : سارق وليس كلُّ سارقٍ خائنًا .

والقَطْعُ يجب على السّارق ، ولا يجبُ على الخائن ، لأنّه مؤتمن . قال النّمر بن تَوْلَب :

وإنَّ بنى ربيعةَ بعْدَ وَهْبٍ كراعِى البيْتِ يحفَظُهُ فخانا[1]

ويقالُ لناقضِ العهْد : خائن ، لأنه أُمِنَ بالعهد وسُكِنَ إليه فغدر ونكث . قال اللهُ تعالى: ﴿ وإمّا تخافَنّ من قومٍ خيانةً ﴾[2] أى نقضًا للعهد .

وكذلك قولُه : ﴿ ولا تزالُ تطّلِعُ علَى خائنةٍ منهُم ﴾[3] أى غدر ونكْث .

ويقالُ لعاصي المسلمين : خائن ، لأنّه مؤتمن على دينه . قال : ﴿ يأيها الّذين آمنُوا لا تخُونُوا اللهَ والرّسُولَ وتخُونُوا أماناتِكُم ﴾[4] يريد

(١) بعد وهب : يريد بعد خيانة وهب لأنه يذمه وقد جاء قبل هذا البيت :

يريد خيانتى وهب وأرجو من الله البراءة والأمانا

فإن الله يعلمنى ووهباً ويعلم أن سنلقاه كلانا

(٢) سورة الأنفال ٥٨ .

(٣) سورة المائدة ١٣ .

(٤) سورة الأنفال ٢٧ .

المعاصي . وقال اللهُ تعالى : ﴿ عَلِمَ اللهُ أنَّكُمْ كُنْتُم تَخْتَانُونَ أنْفُسَكُم ﴾(١) أي تَخونونها بالمعصية(٢) .

كاد

كاد : بمعنى هَمَّ ولم يَفْعَلْ . ولا يُقال : يَكادُ أن يفعل . إنَّما يُقال : كاد يفعل . قال الله تعالى : ﴿ فذَبَحُوها ومَا كادُوا يَفْعَلُونَ ﴾(٣) وقد جاءت في الشعر قال الشاعر :

قد كادَ من طُولِ البِلَى أن يَمْصَحَا(٤)

وأنشد الأصمعيّ :

كادتِ النفسُ أن تفيظَ عليه إذْ ثَوَى حَشْوَ رَيْطَةٍ وبُرُودِ(٥)

ولم يأتِ منها إلاّ فَعَلَ يَفْعَلُ وتثنيتهما وجمعهما ، ولم يُبْنَ منها شيءٌ غير ذلك .

وقال بعضهم : قد جاءَت كاد بمعنى فَعَلَ ، وأنشد قول الأعشى :

* وكادَ يَسْمُو إلى الجُرْفَيْنِ فارْتَفَعَا *

أي سما فارتفع . قال : ومثله قولُ ذي الرُّمَّة :

ولو أن لُقْمانَ الحكيمَ تعرَّضَتْ لعَيْنَيْهِ مَيٌّ سافِراً كادَ يَبْرقُ

أي لو تعرّضتْ له لبَرَق أي : دهش وتحيّر(٦) .

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) « مشكل القرآن » باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة .

(٣) سورة البقرة ٧١ .

(٤) يمصح : يذهب .

(٥) فاظت نفسه تفيظ : خرجت روحه .

(٦) « مشكل القرآن » باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرف .

٤ ــ ابن قتيبة الناقد

تكلم ابن قتيبة فى الشعر جيده ورديئه وصحيحه وخاطئه وأقسامه وطبقاته وترجم للشعراء وروى أخبارهم واختار نماذج من شعرهم فكان صوته من الأصوات الأولى التى لفتت الناس إلى هذا الفن كما كان كتابه « الشعر والشعراء » من المصادر الأولى فى الأدب العربى .

أقسام الشعر

قال أبو مُحَمَّد : تدبَّرْتُ الشعرَ فوجدته أربعة أضْرُب :

ا ــ ضربٌ منه حَسُنَ لفظُه وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كَفِّه خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ ... من كَفِّ أرْوَعَ فى عِرْنِينِه شَمَمُ

يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مَهابته ... فما يُكلَّم إلا حِينَ يَبْتَسِمُ[1]

لم يُقلْ فى الهيبة شىءٌ أحسنُ منه .

وكقول أوْس بن حَجَر :

أيَّتُها النَّفْسُ أجْمِلِي جزَعًا ... إنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قد وقعا

لم يبتَدِئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا .

وكقول أبى ذؤيب :

والنَّفْسُ راغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

(١) هذان البيتان للحزين الكنانى من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان . وزعم أبو تمام فى الحماسة أنهما له فى مدح زين العابدين وزعم غيره أنهما من أبيات للفرزدق فى مدح زين العابدين . قال الأصبهانى فى الأغانى « وهو غلط ممن رواه فيهما وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل على بن الحسن عليهما السلام وله فى الفضل المتعالى ما ليس لأحد » وقال أيضاً . والصحيح أنهما للحزين فى عبد الله بن عبد الملك وقد غلط ابن عائشة فى إدخاله البيتين فى تلك الأبيات وأبيات الحزين مؤتلفة منتظمة المعانى متشابهة تنبئ عن نفسها » ثم ساق أبيات الحزين .

حدَّثني الرِّياشيُّ عن الأصمعي ، قال : هذا أبدع بيت قالته العرب .

وكقول حُمَيْد بن ثوْر :

أرَى بَصَرِي قد رَابني بعد صحَّة ... وحسْبُكَ داءً أن تصِحّ وتَسْلَما

ولم يُقَلْ في الكِبَر شيءٌ أحسنَ منه .

وكقول النابغة :

كِليني لهمٍّ يا أُمَيْمةَ ناصِبِ ... وليلٍ أُقاسيه بَطِيءِ الكَواكِبِ

لم يبتدئ أحدٌ من المتقدّمين بأحسنَ منه ولا أغربَ .

ومثل هذا في الشعر كثير .

ب — وضربٌ منه حَسُنَ لفظُه وحَلا ، فإذا أنتَ فتَّشْتَه لم تَجِدْ هناك فائدة في المعنى ، كقول القائل :

ولما قَضَيْنَا مِن مِنًى كلَّ حاجة ... ومَسَّحَ بالأركانِ من هو ماسِحُ

وشُدَّت على حُدْبِ المهارِي رِحالُنا ... ولا ينظر الغادِي الذي هو رائحُ

أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا ... وسالَتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطحُ

هذه الألفاظُ كما ترى أحسنُ شيء مخارجَ ومطالع ومقاطعِ . وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدتَه : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلَنا الأنْضاء[1] ومضى الناسُ لا ينتظر الغادى الرّائحَ ، ابتدأنا في الحديث ، وسارتْ المطىُّ في الأبْطح .

وهذا الصنف في الشعر كثير .

ونحوه قول المَعْلُوط[2] :

---

(١) الأنضاء جمع نضو وهو الدابة التي أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها . وعالينا إبلنا الأنضاء أي اعتلينا الإبل الهزيلة من مشاق الرحلة .

(٢) هو المعلوط بن بدل السعدي ويروى هذان البيتان لجرير في قصيدة يهجو بها الأخطل . والبيت الثاني في ثلاثة أبيات للمعلوط في حماسة أبي تمام وهما في الأغاني وروى فيه بإسناده عن ابن قتيبة : « أن هذين البيتين للمعلوط وأن جريراً سرقهما منه وأدخلهما في شعره » .

إن الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غــادروا وَشَلاً بعينكَ ما يزالُ مَعينا[1]
غيَّضْنَ من عبراتهنّ وقُلْنَ لِى ماذا لقيتَ من الهَوى ولَقينـا

ونحوه قول جرير :

يا أختَ ناجيةَ السَّلامُ عليكُمُ قبلَ الرحيلِ وقَبل لَوْمِ العُذَّلِ
لو كُنتُ أُعْلَمُ أن آخر عَهْدِكُمْ يومُ الرحيلِ فعلتُ مَا لم أفْعَلِ

ج — وضربٌ منه جاد معناه وقصُرتْ ألفاظُه عنه ، كقول لَبيد ابن ربيعة :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسهِ والمرءُ يُصْلحُه الجلُس الصَّالحُ

هذا وإن كان جيِّد المعنى والسَّبْك فإنه قليل الماء والرَّونَق .

وكقول النَّابغة للنعمان :

خَطَاطيفُ حُجْنٌ فى حِبَالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ[2]

قال أبو محمد : رأيت علماءَنا يستجيدون معناه ، ولستُ أرى ألفاظه جياداً ولا مُبيِّنَةَ لمعناه ، لأنه أراد : أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيفَ عُقْفٍ يُمَدُّ بها . وأنا كدلْوٍ تُمدُّ بتلك الخطاطيف . وعلى أنى أيضًا لستُ أرى المعنى جيداً .

د — وضربٌ منه تأخر معناهُ وتأخَّر لفظُه ، كقول الأعشَى فى امرأة :

وفُـوها كأقاحِىَّ غذاهُ دائمُ الهَطْلِ
كما شيبَ براحٍ با ردٍ من عَسَلِ النَّحْلِ

وكقول الخليل بن أحمد العروضى :

إنَّ الخليطَ تَصدَّعْ فطِرْ بدائِك أوْ قَعْ
لولا جـوارٍ حِسَانٌ حورُ المدامع أرْبَعْ
أمُّ البنينَ وأسمـا ءُ والرَّبابُ وبوزَعْ

---

(١) الوشل : من الدمع يكون القليل والكثير .

(٢) الحجن : جمع أحجن وهو المعوج .

لقلْتُ للرَّاحل ارْحَلْ إذا بدا لَكَ أو دَعْ

وهذا الشعر بيِّنُ التكلف رديءُ الصَّنعة، وكذلك أشعارُ العلماء، ليس فيها شيءٌ جاءَ عن إسْماحٍ وسهولة كشعر الأصْمَعيِّ وشعر ابن المقفَّع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمرَ فإنه أجودهم طبعًا وأكثرهم شعرًا. ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا (أمُّ البنين) و (بوْزَع) لكفاه!

عيوب الشعر

ا ــ الإقواء :

قال أبو محمَّد : كان أبو عمرو بن العَلاء يذكر أن الإقواء هو اختلاف الإعرابِ فى القوافى، وذلك أن تكون قافيةٌ مرفوعةً وأخرى مخفوضةً كقول النابغة :

قالتْ بَنُو عامرٍ خالُوا بنى أسَدٍ يا بُؤسَ للجَهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ

وقال فيها :

تَبْدُو كواكِبُهُ والشمسُ طالعَةٌ لا النّورُ نورٌ ولا الإظْلامُ إظلامُ

ب ــ السناد :

والسناد هو أن يختلف أردافُ القوافى كقولك : «علَيْنا» فى قافيةٍ «وفينا» فى أخرى، كقول عمرو بن كُلْثُوم :

* ألا هُبِّى بصَحْنكِ فاصْبَحينا *

فالحاء مكسورة. وقال فى آخر :

* تصفِّقها الرياحُ إذا جَرَيْنا *

فالراء مفتوحة وهى بمنزلة الحاء.

ج ـ الإيطاء :

والإيطاءُ هو إعادة القافية مرّتين وليس بعيب عندهم كغيره .

د ـ الإجازة :

اختلفوا فى الإجازة . فقال بعضُهم : هو أن تكون القوافى مقيَّدةً فتختلفُ الأردافُ كقول امرئ القيس :

* لا يدَّعى القومُ أنى أفِرّْ *

فكسر الرّدْفَ ، وقال فى بيت آخر :

* وكِنْدَةُ حَوْلى جميعًا صُبُرْ *

فضمّ الرّدْف . وقال فى بيت آخر :

* ألحقْتُ شرًّا بشرّْ *

ففتح الرّدْف .

وقال الخليل بن أحمد : هو أن تكونَ قافيةٌ ميماً والأخرى نونًا ، كقولِ القائل :

يا رُبَّ جَعْدٍ منهمُ لو تَدْرِينْ يضرِبُ ضَرْبَ السَّبِطِ المقادِيمْ[1]

بناء القصيدة

قال أبو محمد : وسمعتُ بعضَ أهْلِ الأدبِ يذكُرُ أنَّ مُقَصِّدَ القصيدِ إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمنِ والآثارِ ، فبكى وشكا ، وخاطبَ الرَّبْعَ ، واستوقَفَ الرّفيقَ ، ليجعل ذلكَ سببًا لذكر أهلها

(١) ذكر ابن قتيبة بعد ذلك من عيوب الشعر : العيب فى الإعراب ، ومد المقصور ، وعدم صرف المصروف ، واستعمال الوحشى من الكلام أو استعمال اللغة القليلة فى العرب ، أو الأساليب التى لا تصح فى الوزن ولا تحلو فى الأسماع وضرب لذلك كله الأمثلة من كلام بعض الشعراء .

الظَّاعنين عنها ، إذ كان نازلةُ العَمَدِ (١) فى الحلول والظَّعْنِ على خلاف ما عليه نازلةُ المدَر ، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتَتَبُّعِهم مساقطَ الغيثِ حيث كان . ثم وَصَل ذلك بالنسيب ، فشكا شدّةَ الوجد وألمَ الفراقِ ، وفَرْط الصبابة والشّوقِ ليُميلَ نحوه القلوبَ ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعِي إصغاءَ الأسماعِ ، لأن التشبيبَ قريبٌ من النفوس ، لائطٌ بالقلوب ، لما جعل الله فى تركيب العبادِ من محبّةِ الغزَل وإلْفِ النساءِ ، فليسَ يكادُ أحدٌ يخلو من أن يكون مُتعلّقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسَهْم ، حلالٍ أو حرام . فإذا استوثق من الإصغاءِ إليه ، والاستماعِ له ، عقّبَ بإيجاب الحقوق ، فرحَلَ فى شعره ، وشكا النصبَ والسَّهرَ ، وسُرَى الليل ، وحَرَّ الهجيرِ ، وإنضاءَ الراحلةِ والبعيرِ . فإذا علمَ أنه أوجبَ على صاحبه حقَّ الرَّجاءِ وذِمامةَ (٢) التأميل ، وقرّرَ عنده ما ناله منَ المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزَّهُ للسَّماحِ ، وفضَّلَهُ على الأشباهِ ، وصَغَّرَ فى قدرِه الجزيلَ .

فالشاعرُ المُجيدُ من سلك هذه الأساليب ، وعدَّل بين هذه الأقسامِ فلم يَجْعلْ واحداً منها أغْلَبَ على الشعر ، ولم يُطِلْ فيُمِلَّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوسِ ظَمأ إلى المزيد .

فقد كان بعضُ الرُّجّازِ أتَى نَصْرَ بنَ سَيّار والىَ خراسانَ لبنى أمية ، فمدحه بقصيدة ، تَشْبيبُها مائةُ بيت ، ومديحُها عشرةُ أبيات . فقالَ نصرٌ : واللهِ ما بقّيْتَ كلمةً عَذْبةً ولا معنًى لطيفاً إلا وقد شغلتَه عن مديحى بتشبيبك ، فإن أردت مديحى فاقتصدْ فى النسيب ، فأتاه فأنشده :

---

(١) نازلة العمد : هم أصحاب الأبنية الرفيعة الذين ينتقلون بأبنيتهم ، وبنحو ذلك فسر الفراء قوله تعالى (إرم ذات العماد) « أنهم كانوا أهل عمد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان ثم يرجعون إلى منازلهم » .

(٢) الذمامة : الذمام وهو الحق والحرمة .

هل تعرفُ الدارَ لأمِّ الغَمْرِ   دع ذا وحَبِّرْ مدحةً فى نَصْرِ

فقال نصر : لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين .

الشعراء المتأخرون وبناء القصيدة

وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهبِ المتقدّمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزلٍ عامر ، أو يبكى عند مُشَيَّدِ البنيان ؛ لأن المتقدّمين وقفوا على المنزل الداثِر ، والرسم العافى . أو يرحَل على حمارٍ أو بَغْل ويصفُها لأنّ المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العِذابِ الجوارِى ؛ لأن المتقدّمين وردوا على الأواجن الطَّوامى[1]. أو يقطع إلى الممدوحِ منابتَ النَّرْجس والآس والورد ، لأن المتقدّمين جَرَوْا على قطع منابتِ الشيح والحَنْوَةِ والعَرارَةِ [2].

دواعِى الشعر وبواعثه

وللشعر دواعٍ تحثُّ البطىءَ وتبعثُ المتكلِّف ، منها الطمع ، ومنها الشوقُ ومنها الشَّرابُ ، ومنها الطربُ ومنها الغضبُ .

وقيل للحطيئة : أىُّ الناسِ أشْعَرُ ؟ فأخرج لسانًا دقيقًا كأنه لسانُ حيَّة فقال : هذا إذا طمع .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخُرَيْمِىّ : مدائحكَ لمحمد بن منصور بن زياد ، يعنى كاتبَ البرامكة ، أشعر من مراثيكَ فيه وأجْوَد . فقال : كُنَّا يومئذ نعملُ على الرَّجاءِ ، ونحن اليومَ نعمل على الوفاءِ ،

---

(١) أجن الماء : تغير لونه وطعمه .

(٢) الشيح : نبات أنواعه كثيرة كله طيب الرائحة . والحنوة : نبات سهلى طيب الريح . والعرارة : نبت طيب الريح أيضاً وقال ابن برى هو النرجس البرى .

وبينهما بَوْنٌ بعيد .

وهذه عندى قصّة الكُمَيْت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب ، فإنه كان يتشيَّع ، وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أميَّة أجودُ منه فى الطالبيِّين ، ولا أرى علَّة ذلك إلا قوّة أسبابِ الطمع وإيثار النفس لعاجل الدُّنيا على آجلِ الآخرة .

وقيل لكُثيِّر : يا أبا صخرٍ كيف تصنع إذا عسُر عليك قولُ الشعر؟ قال : أطوفُ فى الرِّباع المحلية والرِّياض المُعْشِبةِ ، فيسُهل علىَّ أرْصَنُه ، ويسرع إلىَّ أحسنُه . ويقال أيضًا إنَّه لم يُسْتَدْعَ شارد الشعرِ بمثل الماءِ الجارى والشَّرفِ[1] العالى والمكانِ الخضرِ الخالى .

وقال عبد الملك بن مروان لأَرْطأة بن سُهَيَّة : هل تقول الآن شعرًا ؟ فقال : ما أشربُ ولا أطربُ ولا أغضبُ ، وإنما يكون الشعرُ بواحدة من هذه .

وللشعرِ تاراتٌ[2] يبعُد فيها قريبُه ، ويستصعب ريِّضُه ، وكذلك الكلام المنثورُ فى الرسائل والمقاماتِ والجوابات ، فقد يتعذّرُ على الكاتب الأديبِ ، وعلى البليغِ الخطيب . ولا يُعرفُ لذلك سَبَبٌ ، إلا أن يكون من عارض يعترضُ على الغريزة من سوءِ غذاء أو خاطرِ غمّ .

وكان الفرزدق يقول : أنا أشعر تميم ، وربَّما أتت علىَّ ساعةٌ ونزعُ ضرسٍ أسهلُ علىَّ من قول بيت .

وللشعر أوقاتٌ يسرعُ فيها أتيُّهُ ، ويسمحُ أبيُّه ، منها أولُ الليل قبل تَغشّى الكرى ، ومنها صدرُ النهارِ قبل الغداءِ ، ومنها شربُ الدواء ، ومنها الخلوةُ فى الحبْس والمسيرِ .

ولهذه العللِ تختلفُ أشعارُ الشاعرِ ورسائل الكاتب .

---

(١) الشرف : المرتفع من الأرض .

(٢) فى بعض النسخ : أوقات .

المتكلّف والمطبوع

ومن الشعراء المتكلِّف والمطبوع. فالمتكلِّفُ هو الذى قَوَّم شعره بالثِّقاف ونقَّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظرَ بعد النظر، كزهير والحطيئة، وكان الأصمعيّ يقول: زهيرٌ والحطيئةُ وأشباههما عبيدُ الشعر لأنهم نقَّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. وكان الحطيئة يقول: خيرُ الشعر الحولىُّ المحكَّكُ. وكان زهير يُسمِّى كُبَرَ قصائدِه الحوليَّات.

وقال عدى بن الرقاع:

وقصيدة قد بتُّ أجمعُ بينَها حتَّى أقوِّمَ مَيْلها وسِنادها
نَظَرَ المثقِّفِ فى كُعُوب قناتِه حتى يُقيمَ ثِقافُه مُنآدَها[1]

والمتكلَّفُ من الشعر وإن كان جيداً مُحكماً فليس به خفاءٌ على ذوى العلم لتبيُّنهم فيه ما نزل بصاحبِه من طولِ التفكُّرِ وشِدَّةِ العناءِ، ورَشْح الجبين، وكثرةِ الضَّروراتِ، وحذفِ ما بالمعانى حاجةٌ إليه، وزيادةِ ما بالمعانى غِنى عنه، كقولِ الفرزدق فى عمر بن هُبَيْرَة لبعض الخلفاء[2]:

أوَلَّيْتَ العراقَ ورافِدَيْهِ فَزَارِيًّا أحَذَّ يدِ القَميصِ

يريد: أوليتها خفيف اليد، يعنى فى الخيانة، فاضطرته القافيةُ إلى ذكر القميص.

وتتبيَّنُ التكلُّفَ فى الشعرِ أيضاً بأن ترى البيتَ فيه مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لِفْقِه، ولذلك قال عمرُ بنُ لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعرُ منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأنى أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمِّه.

---

(١) الثقاف: آلة تثقف أى تقوم بها الرماح.

(٢) يخاطب بها يزيد بن عبد الملك.

والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجُزَه وفى فاتحته قافيتَه ؟ وتبينْتَ على شعره رونَق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتُحِن لم يتلعثمْ ، ولم يتزحَّرْ[1] .

والشعراء أيضًا فى الطبع مختلفون : منهم من يسهُلُ عليه المديح ويعسُرُ عليه الهجاء . ومنهم من يتيسَّرُ له المراثى ويتعذَّرُ عليه الغزلُ . وقيل للعجَّاجِ : إنك لا تحسنُ الهجاء فقال : إن لنا أحلامًا تمنعُنا من أن نُظلِم ، وهل رأيت بانيًا لا يُحسنُ أن يهدم ؟

وليس هذا كما ذكر العجَّاجُ ، ولا المثلُ الذى ضربه للهجاء والمديح بشكل لأن المديح بناءٌ والهجاءَ بناءٌ ، وليس كلُّ بانٍ يضرب بانيًا بغيره . ونحن نجد هذا بعينه فى أشعارهم كثيرًا . فهذا ذو الرُّمَّة أحسنُ النَّاس تشبيهًا ، وأوصفُهم لرملٍ وهاجرةٍ وفلاةٍ وماءٍ وقُرادٍ ، وحيَّةٍ ، فإذا صارَ إلى المديح والهجاء خانه الطبعُ . وذاك أخَّره عن الفحولِ ، فقالوا فى شعره : أبعارُ غِزْلانٍ ونُقَطُ عروس ، وكان الفرزدق زيرَ نساء وصاحبَ غزل ، وكان مع ذلك لا يُجيدُ التَّشبيبَ . وكان جريرٌ عفيفًا عِزهاةً[2] عن النساءِ ، وهو مع ذلك أحسنُ الناس تشبيبًا . وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه مع عفَّته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقَّة شعره لما تَرَوْنَ .

---

(١) الزحير : إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة .

(٢) العزهاة : العزوف عن اللهو والنساء .

تراجم الشعراء

الخنساء

. . . دخلت خنساءُ على أمّ المؤمنين عائشة ، وعليها صِدارٌ(١) لها من شَعَر ، فقالت لها عائشة رضي الله عنها : يا خنساءُ إنّ هذا لَقبيح ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم فما لبستُ هذا ، قالت : إنّ له قصّة ، قالت : فأخبريني ، قالت : زوّجني أبي رجلاً ، وكانَ سيّداً مِعْطاءً ، فذهبَ مالُه ، فقال لي : إلى مَنْ يا خنساءُ ؟ قلتُ : إلى أخي صخر ، فأتيناه ، فقسمَ مالَه شطرين ، فأعطانا خيرهما ، فجعل زوجي أيضًا يُعطي ويَحْمِلُ ، حتّى نفِدَ مالُه ، فقال : إلى مَنْ ؟ فقلت : إلى أخي صخر (فأتيناه) فقسمَ مالَه شَطرين ، فأعطانا خيرهما ، فقالت امرأته : أما ترضى أن تعطيَها النصفَ حتى تُعطيَها أفضلَ النِّصفَيْن ؟ فأنشأ يقول :

والله لا أمنحُها شِرارَها ولو هلَكتُ مَزّقتْ خِمارَها
* وجَعَلَتْ من شَعَرٍ صِدارَها *

فذلك الذى دعانى إلى أن لبستُ هذا حين هلك .

وكانت تقف بالموْسِم فتسَوّمُ هودَجَهَا بسُومة(٢) ، وتُعاظِمُ العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخَوَيْهَا صخر ومعاوية ابنى عمرو ، وتُنشدهم فتُبكي الناسَ .

وكان أبوها يأخذ بيدَيْ ابنيه صخر ومعاوية ، ويقول : أنا أبو خيرَيْ مُضرَ ، فتعترف له العربُ بذلك ، ثم قالت الخنساء بعد ذلك كنتُ أبكي

(١) الصدار : ثوب رأسه كالمقنعةوأسفله يغشى الصدر والمنكبين تلبسه المرأة،وكانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأحدت عليه لبست صداراً من الصوف .

(٢) سومة : علامة .

لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار .

وممَّا سبقت إليه قولُها :

أشمُّ أبلجُ تأتَمُّ الهُداةُ بــه ... كأنه علمٌ فى رأسِه نار[١]

جميلُ بن معمر العذرى

هو أحد عشَّاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته بُثَيْنَة ، وهما جميعاً من عُذْرَة . . .

والجمال فى عُذْرَة والعشق كثيرٌ ، قيل لأعرابى من العذريِّين : ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تَنماثُ[٢] كما ينماثُ الملح فى الماء ؟أما تَجلَّدون[٣]؟! قال : إنَّا لننظر إلى محاجر أعينٍ لا تنظرون إليها ! . وقيل لآخر : ممَّن أنت ؟ فقال : من قوم إذا أحبُّوا ماتوا ، فقالت جاريةٌ سمعته : عذرىٌّ وربِّ الكعبة !

وعشق جميلٌ بثينة وهو غلامٌ ، فلما كَبِرَ خطبها فرُدَّ عنها ، فقال الشعر فيها وكان يأتيها سرًّا ، ومنزلها وادى القُرى ، فجمع له قومها جمعاً ليأخذوه إذا أتاها ، فحذَّرته بثينةُ ، فاستخفى وقال :

ولو أنَّ ألفًا دون بَثْنَةَ كُلُّهُمْ ... غيارَى وكلٌّ حاربٌ مُزْمِعٌ قَتْلِى

لحاولتُها إمَّا نهارًا مُجاهرًا ... وإمَّا سُرَى ليلٍ ولو قُطِعَتْ رِجلِى

وقال كُثَيِّرٌ : قال لى جميلٌ : خُذْ لى موعداً من بثينة ! قلت له : هل بينك وبينها علامةٌ ؟ فقال لى : عهدى بها وهم بوادِى الدَّوْمِ يَرْحَضُون ثيابهم ، فأتيتُهم فأجدُ أباها قاعداً بالفناء ، فسلَّمتُ فردَّ ، وحادثته

---

(١) انظر فى مجموعة نوابغ الفكر العربى كتاباً عن « الخنساء » بقلم الدكتورة بنت الشاطىء .

(٢) تنماث : تذوب .

(٣) تجلدون : تتجلدون ، حذفت التاء الأولى للتخفيف أى تصبرون .

ساعةً حتى استنشدني فأنشدتُه :

فقلتُ لها : يا عزّ أرسلَ صاحبي على نأْيِ دارٍ ، والموكّلُ مُرْسَلُ
بأن تجعلي بيني وبينكِ موعدًا وأن تأمريني بالذي فيه أفعلُ
وآخرُ عهدٍ منكِ يومَ لقيتِني بأسفلِ وادي الدّوْمِ والثوْبُ يُغْسَلُ

فضربتْ بثينة الخِدْرَ وقالت : اخسأْ ! فقالَ لها أبوها : مَهْيَمْ يا بثينةُ[1] ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا نوّمَ الناسُ من وراء هذه الرّابية . قال : فأتيتُ جميلاً فأخبرته أنّها واعدته وراءَ الرّابية إذا نوّمَ الناسُ . . .

(١) مهيم : كلمة يمنية يستفهم بها ، معناها : ما أمرك وما شأنك .

أهم المراجع

ابن قتيبة : مشكل القرآن

» : تأويل مختلف الحديث

» : العرب أو الرد على الشعوبية

» : الأشربة

» : المعارف

» : أدب الكاتب

» : معانى الشعر

» : الميسر والقداح

» : عيون الأخبار

» : الشعر والشعراء

محمد الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية

فيليب حتّى : تاريخ العرب

أحمد أمين : ضحى الإسلام

الجاحظ : حجج النبوة . رسائل الجاحظ . الحيوان

جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية

يوهان فلك : العربية

ابن النديم : الفهرست

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد

ابن خلكان : وفيات الأعيان

السيوطى : بغية الوعاة

الطبرى : تفسير الطبرى
جولد تسيهر : مذاهب التفسير
الشهرستانى : الملل والنحل
محمد زغلول :- أثر القرآن فى تطور النقد
دائرة المعارف الإسلامية
الأزهري : التهذيب
محمد مندور : النقد ومناهجه عند العرب
السيوطى : المزهر

الفهرست

الفصل الأول

عصر ابن قتيبة

الصفحة

الفصل الثانى

ابن قتيبة فى عصره

الفصل الثالث

جوانب ابن قتيبة

الصفحة

الصفحة

الفصل الرابع
منتخبات من آثار ابن قتيبة

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٠٨٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٤-٧٧-X

١/٨٠/٢٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)